اعجاز القرآن التأثيري
The Infallibility of the Influence of the Qur'n

اعداد الطالب
خالد علي حسين العمري
٩٦٢٠١٠١٠١٠

إشراف الدكتور
حسيب حسن السامرائي

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الدكتور حسيب حسن السامرائي	.....
الدكتور أحمد عباس البدوي	.....
الدكتور عبد الرحيم احمد الزقة	.....
الدكتور أحمد فريد ابو هزيم	.....

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في القرآن الكريم وعلومه في كلية الدراسات الفقهية والقانونية في جامعة آل البيت.

تاريخ مناقشة الرسالة ١٩٩٩/١٠/٢٠م التوصية باجازتها

الإهـــــداء،،،

إلى من كان له الفضل الكبير في تعليمي، ورحل قبل أن يقطف ثمرة جهده وعطائه؛ إلى روحه الطاهرة أهدي هذا العمل... إلى والدي

وإلى من كان لسانها يبتهل إلى الباري أن ييسر لي الطريق وما زال رطب بذكر الله أهدي هذا العمل... إلى أمي

وإلى زوجتي وإخواني وأخواتي وقد وقفوا معي أهدي إليهم هذا العمل.

الشكر والتقدير

وبعد فإن من لا يشكر الناس لا يشكر الله، فأتقدم بجزيل الشكر إلى أستاذي الفاضل الدكتور حسيب السامرائي الذي لم يألُ جهداً في أن تخرج هذه الرسالة على أكمل وجه، مما كان له الأثر الكبير في نفسي فجزاه الله خيراً.

وكما أتقدم بالشكر الجزيل إلى أعضاء لجنة المناقشة داعياً الله عز وجل أن يجزيهم خير الجزاء على إعطائي بعضاً من وقتهم لأنتفع من علمهم وآخذ بتوجيهاتهم ليخرج هذا البحث في صورة أكمل مما هي عليه.

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى جامعة آل البيت ممثلة برئيسها عطوفة الاستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت الذي لم يوفر جهداً في رفع مستوى الجامعة على الصعيد الأكاديمي والإداري، كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لكلية الدراسات الفقهية والقانونية ممثلة بعميدها وأساتذتها وأخص منهم أساتذة أصول الدين والذين لم يبخلوا علي بعلمهم فجزاهم الله خير الجزاء.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى مؤسسة نافذة للطباعة وموظفيها.

وأخيراً فإني أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم في إخراج هذه الرسالة راجياً المولى أن يجزيه خير الجزاء.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	أ
الشكر	ب
قائمة المحتويات	ج
الملخص باللغة العربية	و
المقدمة	١
الفصل التمهيدي: مفهوم الإعجاز وأبرز وجوهه	٩
المبحث الأول: المفهوم اللغوي للإعجاز	١٠
المبحث الثاني: المفهوم الاصطلاحي للإعجاز	١٢
المطلب الأول: مفهوم الإعجاز القرآني في الاصطلاح	١٢
المطلب الثاني: حقيقة الإعجاز ووجهه	١٢
المبحث الثالث: شروط المعجزة والإعجاز	١٦
١- التحدي	١٦
٢- ملائمة طبيعة المخاطبين بها نفسياً وفنياً في مراحل الإنسانية	١٩
٣- تعذر معارضة المعجزة مع عدم وجود مانع من المباراة	٢٠
المبحث الرابع: أوجه الإعجاز	٢٣
المطلب الأول: الإعجاز البياني	٢٤
المطلب الثاني: الإعجاز التشريعي	٢٩
المطلب الثالث: الإعجاز الغيبي	٣١
المطلب الرابع: الإعجاز العلمي	٣٥
المطلب الخامس: الإعجاز النفسي	٣٩

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول: إعجاز القرآن التأثيري؛ مفهومه، علاقته بالإعجاز النفسي موقف العلماء منه، إشارة القرآن إلى الإعجاز التأثيري	٤٢
تمهيد	٤٣
المبحث الأول: مفهوم إعجاز القرآن التأثيري	٤٤
المطلب الأول: حقيقة إعجاز القرآن التأثيري	٤٤
المطلب الثاني: موضع إعجاز القرآن التأثيري في القرآن	٤٩
المبحث الثاني: علاقة إعجاز القرآن التأثيري بالإعجاز النفسي	٥٤
المطلب الأول: حقيقة الإعجاز النفسي	٥٤
المطلب الثاني: علاقة الإعجاز النفسي بالإعجاز التأثيري	٥٨
المبحث الثالث: موقف العلماء من الإعجاز التأثيري	٦٠
المطلب الأول: موقف العلماء السابقين من إعجاز القرآن التأثيري	٦٠
المطلب الثاني: موقف العلماء المعاصرين من إعجاز القرآن التأثيري	٦٩
المبحث الرابع: إشارة القرآن إلى إعجاز القرآن التأثيري	٧٤
المطلب الأول: الآيات القرآنية التي أشارت إلى إعجاز القرآن التأثيري	٧٤
أولاً: الحث على الاستماع والإنصات للقران الكريم	٧٥
ثانياً: الحث على تدبر القرآن الكريم والتذكر في آياته	٧٦
ثالثاً: الحث على الاستشفاء والهداية من القرآن	٧٧
رابعاً: الحث على زيادة الإيمان من خلال قراءة القرآن الكريم	٧٨
خامساً: إشارة القرآن الكريم إلى تأثير القرآن في المؤمنين	٧٩
المطلب الثاني: الرقية بالقرآن وعلاقتها بإعجاز القرآن التأثيري	٨٢
الفصل الثاني: مكمن الإعجاز التأثيري في القرآن.	٨٥
تمهيد	٨٦
المبحث الأول: النظم القرآني وأثره في إعجاز القرآن.	٨٧
المطلب الأول: مفهوم النظم وحقيقته.	٨٧
المطلب الثاني: علاقة النظم القرآني بإعجاز القرآن التأثيري.	٩٣
المبحث الثاني: الإيقاع الموسيقي وعلاقته بإعجاز القرآن التأثيري.	١٠٠

الموضوع	الصفحة
المبحث الثالث: الأداء وعلاقته بإعجاز القرآن التأثيري.	١١٢
المبحث الرابع: معاني القرآن وعلاقتها بإعجاز القرآن التأثيري.	١٢١
المبحث الخامس: الموضوعات القرآنية وعلاقتها بإعجاز القرآن التأثيري.	١٢٩
الفصل الثالث: مظاهر تأثير القرآن الكريم في مستمعيه	١٣٧
تمهيد	١٣٨
المبحث الأول: مظاهر تأثير القرآن الكريم في الناس	١٣٩
المطلب الأول: مظاهر تأثير القرآن الكريم في المؤمنين	١٣٩
أولاً: ما يلحق بهم من مهابة وروعة	١٤٠
ثانياً: ما يلحق بهم من خشوع عند تلاوته	١٤١
ثالثاً: التنافس بين المؤمنين على حفظه والعمل به	١٤٢
المطلب الثاني: مظاهر تأثير القرآن في الكافرين	١٤٦
أولاً: الاستماع للقرآن خفية وخلسة	١٤٦
ثانياً: حث اتباعهم على عدم الاستماع للقرآن	١٥٠
المبحث الثاني: مظاهر تأثير القرآن في الجن	١٥٤
أولاً: الانصات للقرآن والاستماع له	١٥٤
ثانياً: الدعوة إلى الإيمان به	١٥٥
المبحث الثالث: تأثير القرآن الكريم في نفوس المستمعين من غير العرب	١٥٧
المطلب الأول: تأثير القرآن الكريم في غير العرب في عصر التنزيل	١٥٨
المطلب الثاني: تأثير القرآن الكريم في غير العرب بعد عصر التنزيل	١٦٠
تحليل المصادر والمراجع	١٦٦
الخاتمة	١٧٣
المصادر والمراجع	١٧٦
الملخص بالانجليزية	١٨١

الملخص

يعد البحث في إعجاز القرآن التأثيري من الدراسات القديمة الحديثة، فقد بحث العلماء السابقون في هذا المجال منذ بدايات بحوثهم في الإعجاز القرآني بشكل عام، وقد أشار العلماء إلى هذا الوجه من الإعجاز مع بدايات القرن الثالث الهجري، حيث عرفه الإمام الخطابي بأنه ما يصنعه القرآن بالقلوب وما يؤثر به في النفوس. ومن هنا بدأت الكتابة والاشارة إليه من قبل العلماء، إلا أن الكتابة به كانت متفرقة ولا تعدو أن تكون إشارات قصيرة في المظان والمصادر القديمة.

وقد ارتسمت معالم هذا الوجه من الإعجاز في العصر الحديث عندما بدأ العلماء المسلمون يطالعون النظريات الحديثة في مجالات الحياة، وكان من هذه المجالات مجال علم النفس الحديث ونظرياته الحديثة؛ فقد أخذ العلماء يبحثون عن كثير من تلك النظريات داخل القرآن الكريم، فوجدوا أن القرآن الكريم قد سبق العلم الحديث في هذا المجال، عندما تحدث عن النفس الإنسانية وصفاتها وأحوالها وجميع ما يختص بها من أسرار. وإلى جانب ذلك اتجه العلماء المسلمون لدراسة أثر القرآن الكريم على النفس الإنسانية، ومدى تأثيره في النفوس من المخاطبين، فكانت النتائج أن للقرآن الكريم أثراً بالغاً في النفس الإنسانية وأن له سلطاناً عجيباً على القلوب لا يصنعه أبلغ الكلام من كلام البشر.

وقد اتضح لي من خلال الدراسة في إعجاز القرآن التأثيري أن هناك أسباباً عديدة تعود إلى أثر القرآن في النفس الإنسانية؛ فوجدت كثيراًمن العلماء قد عزى ذلك إلى أن القرآن الكريم هو روح من أمر الله سبحانه وتعالى، فبمجرد أنه روح من أمر الله فإنه يؤثر في النفس ويقع في القلب مباشرة وقد استدل القائلون بهذا القول بقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) [الشورى آية ٥٢]. وإن كان هذا عاملاً أساسياً في تأثير القرآن على النفس إلا أن كلام الله سبحانه وتعالى كان ذا نظم بليغ لم يعهده بشر وجاء هذا النظم مضمناً أصح المعاني وأفصحها كما أنه عرضها بأساليب بلاغية أبهرت فحول اللغة والبلاغة، كما أن القرآن الكريم قد عالج مواضيع تهم الإنسان وتخصه وجاء ذلك كله بأداء حسن لا يليق بأي كلام غير كلام الله سبحانه وتعالى. وأعني بالأداء الحسن أن يعطي القارئ التلاوة حقها.

وقد وجدت من خلال بحثي هذا أن تأثير القرآن الكريم يعود إلى أسباب عديدة من أهمها معاني القرآن المبتكرة إلى جانب نظم القرآن الذي هو توخي معاني النحو وأحكامه فقد جاء القرآن الكريم بنظم بديع أبدعه الخالق سبحانه وتعالى وقد جاء النظم القرآني بعمليتين مهمتين هما ترتيب المعاني في النفس، ثم ترتيب الألفاظ في النطق، أي إن القرآن الكريم قد اختار معاني سامية بألفاظ بديعة معبرة وجاء بين هذه العمليتين نظم بديع فوجدنا الترابط بين الألفاظ القرآنية من خلال توخي معاني النحو كما وجدنا الترابط بين المعنى واللفظ.

ومن الأسباب المهمة أيضاً في إعجاز القرآن التأثيري ما يعرف بالايقاع الموسيقي في القرآن الكريم، والذي تمثل في أشكال عدة من أهمها الفاصلة القرآنية، وقد وجدت أن الفاصلة القرآنية تتعدد وتتنوع حسب السورة القرآنية، فنجدها أحياناً قصيرة في السورة القصيرة، وطويلة في السورة الطويلة، وهي أيضاً متوسطة في السورة المتوسطة، وقد وجدت أن الايقاع الموسيقي القرآني له أثر بليغ ووقع رهيب في النفس الإنسانية وأن الايقاع من العوامل المهمة جداً في تهذيب النفس وجعلها تستمع إلى القرآن الكريم.

ومن العوامل المهمة أيضاً هو الأداء الحسن للقرآن الكريم وأقصد به إعطاء القرآن الكريم حقه بالتلاوة، فإن إعطاء التلاوة حقها من العوامل الأساسية في تلاوة القرآن، ومن العوامل الأساسية أيضاً في التأثير على النفس الإنسانية، وأحكام التلاوة من المميزات الخاصة للقرآن الكريم؛ فإننا لا نجد كلاماً غير القرآن الكريم من مميزاته أحكام التلاوة والتجويد بل على العكس من ذلك فإن هذا يعد من عيوب الكلام إذا طبقت عليه أحكام التلاوة والتجويد، أما إذا لم تطبق هذه الأحكام في القرآن الكريم فإن ذلك يعد من عيوب القراءة. ومما يميز القرآن الكريم أيضاً في هذا الجانب هو الأداء الحسن بالصوت الحسن فإن طبيعة النفس أن تعشق وتميل إلى الصوت الحسن، وهذا عامل أساسي في التأثير القرآني فإن القراءة الحسنة بالصوت الحسن مؤثرة في النفس أكثر من القراءة الحسنة وبصوت غير حسن.

وقد وجدت إلى جانب تلك العوامل عاملين أساسيين في تأثير القرآن الكريم على المستمعين وهما المعاني القرآنية والموضوعات القرآنية، فقد راعى القرآن الكريم المعاني الذهنية التي أراد معالجتها وذلك عن طريق اختيار ألفاظ تحمل معاني عديدة وليس معنى

واحداً. فاللفظ القرآني احتمل كثيراً من المعاني التي أرادها الله سبحانه وتعالى وكثيراً ما نجد معاني حديثة لم تكن في السابق وقد تمثل هذا في كثير من معاني آيات القرآن في مجال الكون. كما أن القرآن الكريم قد اختار مواضيع مهمة تخص الإنسان في حياته ومعاشه فلم تكن المواضيع القرآنية بعيدة عنه إنما كانت هذه المواضيع هي الإنسان نفسه وكيف سخر الله له هذا الكون، وما فيه من مكنونات.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، له الخلق والأمر، ومنه التسديد والعون، وإليه المرجع، وبه المستعان.

وأشهد أن لا إله إلا الله.. له الحمد على عباده بما هداهم إليه من الإيمان، أنزل القرآن ليكون بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فله الشكر على جزيل إحسانه وعظيم منَّته، يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده. فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين.

وبعد...

فإن من نعم الله سبحانه وتعالى على الخلق، أن بعث فيهم مرسلين يبلغونهم الحق، ويهدونهم إلى سبيل الرشد، ذلك أن العقل وحده لا يكفي ولا يغني عن الهداية الربانية، وهذا لقصوره عن إدراك تلك الحقيقة.

ولأن طبيعة الناس حرصهم على ما ألفوه، يتعلقون بما عرفوا ويقلدون آباءهم وأجدادهم؛ جعلتهم لا يستجيبون للرسل عليهم السلام بل كذبوهم بدعواهم. فكانت رحمة الله سبحانه وتعالى أن يؤيد رسله بمعجزات تكون دليلاً على صدق دعواهم حتى لا يبقى في النفس شك أو وهم.

فكانت معجزة موسى عليه السلام العصا واليد لتوافق ذلك العصر الذي طغى فيه السحر على كل معقول. وجاءت معجزة عيسى عليه السلام في زمن طغيان المادة وانبهار الناس بها فكانت معجزته في إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله وكانت موافقة لزمانه عليه السلام. وما من نبي إلا وأجرى الله على يديه معجزة تدل على صدق نبوته.

وما من شك في أن الله سبحانه وتعالى قد ارتضى لهذه الأمة أن تكون فيها خاتمة الرسالات السماوية، وهذا من فضله سبحانه وتعالى عليها. فأرسل محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً للعالمين إلى يوم الدين، وقد جعل الله معجزته في القرآن الكريم وهو كلام الله سبحانه وتعالى، وقد جاءت معجزته صلى الله عليه وسلم مخالفة لمعجزات الأنبياء جميعاً؛ ذلك أن معجزات الأنبياء كانت حسية يراها الإنسان تحدث أمامه، وهذا خلاف معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم والتي كانت عقلية مما جعلها تلائم كل زمان وكل مكان. ولقد ثبت أن قارىء القرآن لا يسأمه، وسامعه لا يمجه، بل تكراره يوجب زيادة محبة.

فهذا وغيره جعل القرآن الكريم معجزاً في عصر التنزيل، وجعله معجزاً في عصرنا هذا، وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد ثبت في نماذج عديدة وجود عدة أوجه للإعجاز القرآني وبصور متعددة، وقف عندها الباحثون، وهناك نوعاً من إعجازه لم يقف عنده كثير من الباحثين هو تأثيره في النفس الإنسانية وسلطانه العجيب على القلوب، فإن السامع للقرآن الكريم إذا ما استمع له تجده ينجذب نحوه بخشوع وخشية قد تصل الى مرحلة القشعريرة والبكاء.

هذا الوجه من الإعجاز لم يقف عنده كثير من الباحثين بدراسة مستقلة، ولعل هذا كان سبباً من الأسباب التي دعتني للوقوف على هذا الوجه من الإعجاز.

وإلى جانب هذا السبب كان هناك سبب آخر هو الوقوف على سر تأثير القرآن في النفوس، فإن القرآن جعل كثيراً من الناس يؤمنون به لمجرد سماعه بعض آيات تتلى، فهذا يستدعي من الباحث وقفة على هذا السر.

ومن الأسباب الأخرى هي انصراف كثير من العلماء عن الكتابة في هذا الوجه من وجوه الإعجاز وقد أشار الإمام الخطابي في رسالته الى ذلك.

والسبب الأخير الذي دعاني للوقوف على هذا الوجه من الإعجاز هو أن القرآن الكريم والذي يزخر بكثير من العلوم ما زال متحدياً مخالفيه بأن يأتوا بمثله، وما زالوا هم عاجزين عن الإتيان بمثله؛ فما هو سر هذا الإعجاز وأين يكمن؟ هذه أسئلة استوقفتني كثيراً فجعلت للموضوع أهمية لدى الباحث.

ولدى الرجوع والإطلاع في المكتبة الإسلامية على الموسوعات العلمية التي تتصل بموضوع إعجاز القرآن لم أعثر على أي بحث علمي تناول دراسة موضوع إعجاز القرآن التأثيري دراسة مستقلة، وهذا على حد علمي.

إلا أن الرجوع الى كتب التفسير وكتب علوم القران وخاصة تلك التي اختصت في الإعجاز القرآني وغيرها من المصادر والمراجع بين أن هناك جهوداً كبيرة بذلت في سبيل بيان معنى الإعجاز وأهم أوجهه. إلا أن هذه الكتابات كانت متفرقة ومتناثرة في ثنايا تلك المظان.

ولعل جمع هذه المادة العلمية وترتيبها حسب هيكلية علمية واضحة المعالم يجعل هذا البحث الذي نحن بصدده يسد فراغاً واضحاً في هذا المجال إن شاء الله تعالى.

وقد دارت إشكاليات البحث حول موضوع إعجاز القرآن التأثيري وقد تناولت الجوانب التالية:

١- ما مفهوم الإعجاز في التأثير؟

٢- ما علاقة الإعجاز التأثيري بالإعجاز النفسي؟

٣- أين يكمن الإعجاز في التأثير؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تستدعي من الباحث الإجابة عن إشكاليات أخرى تقتضيها طبيعةُ البحث وحدوده، وتعد استكمالاً لجوانبه وتقديمه بصورة علمية سليمة، وهذه الإشكاليات هي:

١- ما هي علاقة النظم بإعجاز القرآن التأثيري؟

٢- ما هي علاقة الإيقاع القرآني بإعجاز القران التأثيري؟

٣- ما هي علاقة الأداء بإعجاز القرآن التأثيري؟

٤- ما هو دور المعنى في إعجاز القرآن التأثيري؟

إن الدراسة المستفيضة لأدبيات هذه الدراسة لتنبه على النقص الواضح في الإجابة على هذه الإشكاليات بصورة مباشرة، الأمر الذي دفعني الى لمِّ شتات هذا الموضوع في محاولة جادة لسد هذا النقص.

وقد حاولت في هذه الدراسة ألاّ أتطرق لأي موضوع خارج عن هذا البحث إلا بما يتفق ومضمونه فلم أتعرض إلى أوجه الإعجاز الأخرى إلا بالصورة التي تتفق مع هذه الدراسة ، كما أني حاولت ألا أتعرض إلى اختلاف العلماء في قضايا الإعجاز وخاصة الإعجاز بالصرفة كما أنني لم أتعرض إلى معالجة السنة النبوية لموضوع الإعجاز إلا من خلال دراسة أحاديث الرقية حيث إن هذا الموضوع يتفق وموضوع الدراسة.

أما عن المنهج الذي اتبعته في البحث: فهو الإعتماد على منهج علمي يعتمد على طريقة الإستقراء والتتبع بطريقة متأنية لكل ما من شأنه أن يمتّ بصلة للموضوع، ثم القيام بعملية تحليل لجميع المعلومات التي يتم الوقوف عليها، ثم الوصول من خلال عملية استنباط متأنية إلى نتائج علمية محددة.

وقد كانت المنهجية محددة بأطر ثلاثة هي:

١- تتبع المصادر والمراجع التي تتصل بموضوع إعجازالقرآن التأثيري عن طريق الاعتماد على المراجع والمصادر الأساسية في الموضوع.

٢- تحليل ودراسة موضوع إعجاز القرآن التأثيري وذلك عن طريق المنهج التحليلي وهنا قمت بعرض المسائل بأمانة علمية مع محاولتي في أن أتجنب الإطالة والإطناب في الموضوعات والتعليقات.

٣- استنباط النتائج التي توصلت لها من خلال الإطارين السابقين.

هذا وقد كان البحث في فصل تمهيدي وثلاثة فصول وخاتمة على النحو التالي:

الفصل التمهيدي: مفهوم الإعجاز وأبرز وجوهه. وتحته أربعة مباحث:

المبحث الأول: المفهوم اللغوي للإعجاز.

المبحث الثاني: المفهوم الإصطلاحي للإعجاز. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم الإعجاز القرآني في الإصطلاح.

المطلب الثاني: حقيقة الإعجاز ووجهه.

المبحث الثالث: شروط المعجزة والإعجاز. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التحدي

المطلب الثاني: ملاءمة طبيعة المخاطبين بها نفسياً وفنياً في مراحل الإنسانية

المطلب الثالث: تعذر معارضة المعجزة مع عدم وجود مانع من المباراة

المبحث الرابع: أوجه الإعجاز. وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الإعجاز البياني.

المطلب الثاني: الإعجاز التشريعي.

المطلب الثالث: الإعجاز الغيبي.

المطلب الرابع: الإعجاز العلمي.

المطلب الخامس: الإعجاز النفسي.

الفصل الأول: إعجاز القرآن التأثيري: مفهومه علاقته بالإعجاز النفسي وموقف العلماء منه. وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم إعجاز القرآن التأثيري. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حقيقة إعجاز القرآن التأثيري.

المطلب الثاني: موضع إعجاز القرآن التأثيري في القرآن.

المبحث الثاني: علاقة إعجاز القرآن التأثيري في القرآن بالإعجاز النفسي. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: حقيقة الإعجاز النفسي.

المطلب الثاني: علاقة الإعجاز النفسي بالإعجاز التأثيري.

المبحث الثالث: موقف العلماء من الإعجاز التأثيري. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: موقف العلماء السابقين من إعجاز القرآن التأثيري.

المطلب الثاني: موقف العلماء المعاصرين من إعجاز القرآن التأثيري.

المبحث الرابع: إشارة القرآن الى إعجاز القرآن التأثيري. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآيات التي أشارت إلى إعجاز القرآن التأثيري

المطلب الثاني: الرقية بالقرآن وعلاقتها بإعجاز القرآن التأثيري

الفصل الثاني: مكمن الإعجاز التأثيري في القرآن. وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: النظم القرآني وأثره في إعجاز القرآن. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم النظم وحقيقته.

المطلب الثاني: علاقة النظم القرآني بإعجاز القرآن التأثيري.

المبحث الثاني: الإيقاع الموسيقي وعلاقته بإعجاز القرآن التأثيري.

المبحث الثالث: الأداء وعلاقته بإعجاز القرآن التأثيري.

المبحث الرابع: معاني القرآن وعلاقتها بإعجاز القرآن التأثيري.

المبحث الخامس: الموضوعات القرآنية وعلاقتها بإعجاز القرآن التأثيري.

الفصل الثالث: مظاهر إعجاز القرآن التأثيري في مستمعيه. وتحته ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر تأثير القرآن الكريم في الناس. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مظاهر تأثير القرآن في المؤمنين.

المطلب الثاني: مظاهر تأثير القرآن في الكافرين.

المبحث الثاني: مظاهر تأثير القرآن في الجن.

المبحث الثالث: تأثير القرآن الكريم في نفوس المستمعين من غير العرب. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تأثير القرآن الكريم في غير العرب في عصر التنزيل.

المطلب الثاني: تأثير القرآن في غير العرب بعد عصر التنزيل.

الخاتمة وفيها خلاصة البحث والنتائج التي توصلت إليها

ثم أدرجت فصلاً مستقلاً هو فصل:

تحليل المصادر والمراجع

وبعد فقد قال العماد الأصفهاني: "إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يوم إلا قال في غده أو بعد غده لو غُير هذا لكان أحسن ولو زيد هذا لكان يستحسن ولو قُدم هذا الكتاب أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص في جملة البشر".

هذا ما أردت الكتابة به ، فأسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل مني عملي هذا وأحمده سبحانه وتعالى إذ أعانني على كتابة هذا البحث، فلا الأولى والآخرة فإن أصبت فمن الله وحده وإن أخطأت فمن الشـ نفسي.

وأخيراً فإن من لا يشكر الناس لا يشكر الله فأتقدم بالشكر الجزيل إلى جامعة آل البيت ممثلة برئيسها عطوفة الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت الذي لم يألُ جهداً في رفع مستوى الجامعة العلمي كما أتقدم بعميق الشكر إلى فضيلة الدكتور حسيب السامرائي أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة آل البيت الذي بذل كبير الجهد، ولم يترك ثغرة في هذا البحث إلا وقد ملأها من علمه الوفير فجزاه الله خير الجزاء أنه سميع مجيب الدعاء.

كما أشكر جميع الأساتذة الفضلاء الذين أسدوا إليّ المشورة والنصح وأخص منهم أعضاء لجنة المناقشة لتفضلهم بقبول مناقشة هذا البحث سائلاً المولى عزّ وجل أن ينفعني بعلمهم إنه سميع مجيب الدعاء.

كما أشكر جميع الإخوة الذين ساهموا في إخراج هذه الرسالة وكل من قدم لي المساعدة وأن يجزيهم خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل التمهيدي

مفهوم الإعجاز وأبرز وجوهه

المبحث الأول: المفهوم اللغوي للإعجاز

الإعجاز من العجز و أصله التأخر عن الشيء يقول الراغب الأصفهاني: عجُز الإنسان مؤخره... والعجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجُز الأمر.[١] ومثل هذا قاله السمين الحلبي في عمدة الحفاظ[٢]، وقاله ابن فارس في معجم مقاييس اللغة[٣].

والحق أن لابن فارس رأياً آخر في معنى العجز، فهو يرى أن للعجز أصلين، يدلُ أحدهما على الضعف والآخر على مؤخر الشيء[٤]. وإذا ما أمعنا النظر في المعاني السابقة نجد أن معنى العجز هو مؤخر الشيء، فأصل العجز في اللغة مؤخر الإنسان، واستعير لغيره حيث إن القصور والتأخر عن الشيء متلازمان، لأن من تأخر عن غيره إنما يرجع ذلك لتقصيره. وهذا يؤيد القول الذي يقول أن معنى العجز هو التأخر عن الشيء.[٥]

أما عن معنى اشتقاقات الأصل فإن أول ما نقف عنده هو معنى المعجزة. وهي واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام. ومنها أعجاز الأمور أي أواخرها.[٦] ومنها معجزة النبي وهي ما أعجز به الخصم عند التحدي.[٧]

---

(١) أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ص ٣٢٢.

(٢) أحمد بن يوسف السمين الحلبي، **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، تحقيق وتعليق محمدالتونجي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٣. ج٣ ص٤٠.

(٣) الحسين أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت ١٩٩١، ج٤ ص٢٣٢.

(٤) المرجع ذاته ص٢٣٢.

(٥) فضل حسن عباس، **إعجاز القرآن الكريم**، مجهول دار النشر ١٩٩١، ص١١.

(٦) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر بيروت، ج٥ ص٣٧٠.

(٧) أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، **الكليات؛ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، سوريا ١٩٩٣. ص١٤٩.

أما الإعجاز فهو من: أعجزه الشيء: أي فاته وهو في الكلام أن يؤدى المعنى بطريق أبلغ من كل ما عداه من الطرق.[١] وعلى هذا يكون معنى الإعجاز الفوت والسبق وهذا ما قاله ابن منظور في لسان العرب.[٢]

وخلاصة الأمر أن معنى العجز مؤخر الشيء، ومنه القصور والفوت، ومن هذا المعنى نشتق معاني المصطلحات المشتقة من الأصل الثلاثي.

---

(١) المرجع ذاته، ص١٤٩.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٥ ص٣٧٠.

المبحث الثاني: المفهوم الإصطلاحي للإعجاز.

المطلب الأول: مفهوم الإعجاز القرآني في الإصطلاح:

ذكر علماء الإعجاز عدة تعاريف للإعجاز فقد عرفه أبو البقاء صاحب كتاب الكليات بأنه: ارتقاؤه في البلاغة الى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته.[١]

وعرفه الجرجاني بتعريف مشابه تماماً للتعريف السابق فيقول: "الإعجاز في الكلام هو أن يُؤدَى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق".[٢] فهذا التعريف لا يختلف عن تعريف أبي البقاء، وكذلك سائر تعريفات العلماء، فهم يتفقون على أن إعجاز القرآن يكمن في إثبات عجز البشر عن الاتيان بمثل القرآن، سواء كان ذلك من جهة بلاغته، أو من جهة نظمه، حتى إعجازه في موضوعاته. وإن كان الاجماع على أن الاعجاز الذي وقع به التحدي هو من جهة البيان فقط. وذلك أن البيان نجده في جميع آيات القرآن، وهذا خلاف الأوجه الأخرى، فإن آيات القرآن لا تتضمنها جميعاً بل نجدها أحياناً في آية، ولا نجدها في أخرى. وهذا ما يدعونا الى أن نقف على حقيقة الاعجاز وإبراز الصورة الأوضح من وجوه إعجاز القرآن.

المطلب الثاني: حقيقة الاعجاز ووجهه:

تحدث العلماء عن الاعجاز في السابق، وقد تباينت آراء العلماء حول حقيقة الاعجاز ووجهه، فما هو وجه الاعجاز وما هي حقيقته؟ وكيف صار القرآن معجزاً للعرب؟ هل كان هذا الاعجاز من جهة الفصاحة والبيان؟ أم كان من جهة الموضوعات التي طرحها القرآن؟.

---

(١) أبو البقاء، **الكليات**، ص١٤٩.

(٢) علي بن محمد السيد الجرجاني (ت٨١٦هـ)، **التعريفات**، تحقيق عبد الرحمن عميرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧، ص٥٤.

الباحث في إعجاز القرآن يجد أن العلماء اتفقوا على أن مدار البحث في الاعجاز القرآني يكون في أحد وجهين، أحدهما الوجه البياني الصرف، والآخر هو الموضوعات التي ذكرها القرآن، سواء كان منها الموضوعات التشريعية أو الغيبية أو غيرها من الموضوعات الأخرى.[١] ومن خلال هذا الأمر نستطيع أن نقف على حقيقة الإعجاز، وأن نميز بين أمرين هامين أولهما أن إعجاز القرآن هو دليل النبي صلى الله عليه وسلم على نبوته، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف الإعجاز من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من العرب، وأن التحدي المقصود في آيات التحدي إنما جاء بلفظه ونظمه وبيانه، وليس بشيء خارج عن ذلك. والأمر الثاني أن إثبات أن القرآن (دليل النبوة) من عند الله لا يدل على أن القرآن معجز، وأن اثبات صحة النبوة لا يدل كذلك على أن القرآن معجز. وقد أشار الى ذلك الاستاذ محمود شاكر في تقديمه لكتاب الظاهرة القرآنية فقال: "لا مناص لمتكلم في إعجاز القرآن من أن يتبين حقيقتين عظيمتين... وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهراً لا يلتبس وأن يميز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما:

أولاهما: أن (إعجاز القرآن) كما يدل عليه لفظه وتاريخه، وهو دليل النبي صلى الله عليه وسلم على صدق نبوته، وعلى أنه رسول الله يوحى إليه هذا القرآن، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف (إعجاز القرآن) من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب، وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي، من نحو قوله تعالى: ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله الا هو فهل أنتم مسلمون**﴾[٢]... إنما هو تحد بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك. فما هو تحد بالإخبار بالغيب المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزيله...

---

(١) عدنان محمد زرزور، **علوم القرآن، مدخل الى تفسير القرآن وبيان إعجازه**، الطبعة الثالثة، المكتب الاسلامي، بيروت ١٩٩١م ص٢٢٧.

(٢) هود: ١٣، ١٤.

ثانيهما: أن إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله، كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب* الله سبحانه، لا يكون منها شيء يدل على أن القرآن معجز، ... ومن البين أن العرب قد طولبوا بأن يعرفوا دليل نبوة رسول الله، ودليل صدق الوحي الذي يأتيه، بمجرد سماع القرآن نفسه، لا بما يجادلهم به حتى يلزمهم الحجة في توحيد الله، أو تصديق نبوته،... فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، أما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن".(١)

من خلال هاتين الملاحظتين نستطيع أن نتبين حقيقة الاعجاز القرآني، وهي أن القرآن يحمل في بيانه الدليل الكافي على أنه ليس من كلام البشر.

وإذا كان القرآن معجزاً في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجزاً في أثره الانساني، ومعجزاً في وجوه أخرى، فإن مقصدنا في بيان إعجاز القرآن هو من جهته بيان إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربي.(٢)

من هذا نستطيع أن نحدد معنى وحقيقة إعجاز القرآن بالأمور الآتية(٣):

الأول: أن قليل القرآن وكثيره في شأن "الإعجاز" سواء(٤). حيث إن القرآن الكريم قد تحدى معارضيه قبل أن يكون وحدة كاملة، فتحداهم بقليل القرآن يوم أن كان القرآن لم ينزل منه إلا تلك السور القلائل، وتحداهم أيضاً يوم أن اكتمل نزول القرآن وأصبح وحدة متكاملة.

الثاني: أن الإعجاز، كائن في رصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب، ثم سائر لغات البشر، ثم بيان الثقلين جميعاً، إنسهم وجنهم متظاهرين.

* الكتب السماوية المعتمدة هي أربعة كتب: القرآن، التوراة، الإنجيل، الزبور. أما بقية ذلك فهي تعد من الصحف.

(١) مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥ ص ص ٢٤، ٢٥.

(٢) مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٥، ص١٥٥.

(٣) انظر كلام محمود شاكر في تقديمه لكتاب **الظاهرة القرآنية** لمالك بن نبي، ص ص ٣٠-٣١.

(٤) ليس المقصود بقليل القرآن أن نأخذ لفظاً واحداً ثم نقول عنه إنه معجز، إنما المقصود هو السور القلائل التي نزلت في بداية الدعوة، ولم يكتمل نزول القرآن بعد فأقل القليل المقصود هو السورة.

الثالث: أن ما في القرآن من مكنون الغيب، ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزلٍ عن التحدي المفضي الى الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك كله يعد دليلاً على أنه من عند الله تعالى ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم وكلام البشر وبيانهم، وأنه بهذه المباينة كلام رب العالمين، لا كلام بشر مثلهم.

المبحث الثالث: شروط المعجزة والإعجاز

تعددت آراء العلماء في أوجه الإعجاز، مما جعل كثيراً من العلماء يُقيد الإعجاز بشروط تحد من الكم الهائل من أوجه الإعجاز التي بالغ العلماء في تضمينها للإعجاز القرآني.

ومن هذا المنطلق وضع العلماء شروطاً ضرورية لتحقيق أية معجزة، سأتكلم عن أبرزها والتي تتوافق مع معجزة القرآن الكريم ذلك أن المعجزات السابقة والتي كانت للأنبياء ليست مقصودة وذلك لاندراسها مع موت النبي أو الرسول. وليست هذه الشروط هي وحدها التي تكلم عنها علماء الإعجاز؛ بل هناك شروط أخرى غيرها يمكن الرجوع إليها في المراجع التي رجعت إليها:

أولاً: التحدي، وهو أن تكون المعجزة مقرونة بالتحدي، الذي هو طلب المنازلة والمعارضة[١].

وقد قسم العلماء في هذا الشرط المعجزة إلى نوعين، الأول معجزات مقرونة بالتحدي، وهي تلك المعجزات التي وجهت إلى الكفار، لتكون دليلاً للنبي، يتحدى بها معارضيه من المنكرين، ومن هذه المعجزات القرآن الكريم. أما النوع الثاني من المعجزات فهي تلك المعجزات غير المقرونة بالتحدي، وهي تلك المعجزات الموجهة لأتباع الأنبياء المؤمنين، منها تسبيح الحصى بين يديه صلى الله عليه وسلم[٢].

لا خلاف بين العلماء، على أن التحدي قد وقع، وقد دل على ذلك كثير من الآيات. منها قوله تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن**

---

(١) قحطان عبد الرحمن الدوري، **التحدي في آيات الإعجاز**، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، سوريا، ١٩٩٧، ص٩. وانظر: عبد الستار حامد، "القرآن والإعجاز العلمي"، **في الإعجاز القرآني**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق، ١٩٩٠، ص٣٢٢.

(٢) صلاح عبد الفتاح الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، الطبعة الثانية، دار عمار، عمان، ١٩٩١، ص٢٤.

﴿تفعلوا فاتقوا النارالتي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾[١]. ومثل ذلك قوله عز وجل: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾[٢]. وقوله: ﴿أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾[٣].

وهذه الآيات تثبت أنه تحداهم إليه، ولم يأتوا بمثله، وفي هذا أمران: أحدهما التحدي إليه، والآخر أنهم لم يأتوا له بمثل.[٤]

وقد جاء التحدي صريحاً في القرآن الكريم، ودلت عليه آيات خمسة جاءت متفرقة بين سور مكية ومدنية وهي حسب ترتيب المصحف كالآتي:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا، فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله، إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فاتقوا النار، التي وقودها الناس والحجارة، أعدت للكافرين﴾[٥].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه، من رب العالمين. أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتهم تأويله، كذلك كذّب الذين من قبلهم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾[٦].

---

(١) البقرة: ٢٣، ٢٤.

(٢) الإسراء: ٨٨.

(٣) الطور: ٣٣، ٣٤.

(٤) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، إعجاز القرآن، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت ١٩٩١ ص ص ٦٥-٦٦.

(٥) البقرة: ٢٣، ٢٤.

(٦) يونس: ٣٧- ٣٩.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿**أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو، فهل أنتم مسلمون**﴾[١].

رابعاً: قوله تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾[٢].

خامساً: قوله تعالى: ﴿**أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله. إن كانوا صادقين**﴾[٣].

هذه مواضع خمسة تحدى القرآن بها معارضيه وهي صريحة بالتحدي، وهناك آيات أخرى جاء التحدي فيها ضمنياً، وقد جاءت هذه الآيات موزعة في الفترتين المكية والمدنية مما يدل على أن التحدي لم يكن محدداً بفترة زمنية، بل على العكس من ذلك، فإن التحدي كان في الفترة المكية بقليل القرآن الذي نزل منذ البداية، ثم كان التحدي بكثير القرآن في الفترة المدنية، وما زال التحدي بعد اكتمال نزول القرآن الكريم.

لقد نصت الآيات على أن المطلوب هو الإتيان بمثل القرآن، والمثلية المقصودة هي المثلية في رصفه ونظمه وبيانه وليس في موضوعاته، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**فأتوا بعشر سور مثله مفتريات**﴾[٤]. إذ أن معنى مفتريات (مفتعلات[٥] مختلفات) "وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي، فالمماثلة في قوله (مثله) هي المماثلة في بلاغة الكلام وفصاحته لا في سداد معانيه. وفي هذا

---

(١) هود: ١٣، ١٤.

(٢) الإسراء: ٨٨.

(٣) الطور: ٣٣-٣٤.

(٤) هود: ١٣.

(٥) الطبري، **جامع البيان عن تاويل آي القرآن**، ج٧، ص١١.

دليل على أن إعجازه وفصاحته بقطع النظر عن علوّ معانيه وتصديق بعضه بعضاً[١]".

ثانياً: أن تكون المعجزة ملائمة لطبيعة المخاطبين بها نفسياً وفنياً في مراحل الانسانية المتطورة.[٢]

إذ ليس من المعقول أن يخاطب النبي قومه بما لا يفهمونه سواء كان ذلك من العلوم أم من الفصاحة والبيان. وقد تحقق هذا الشرط مع جميع الأنبياء عليهم السلام، فجاءت معجزة موسى عليه السلام، والتي تمثلت في العصا، لتخاطب قومه المشتهرين بالسحر، كما جاءت معجزة عيسى عليه السلام، في عصر طغيان المادة، فكانت معجزته متمثلة في إبراء الأكمه والأبرص، إلى جانب المعجزات الآخرى التي أجراها الله على يديه.

وإذا كانت معجزات الأنبياء السابقين حسية مادية ملموسة على الواقع، فقد جاءت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم مختلفة تماماً عن معجزات الأنبياء السابقين، فهي معنوية، ملائمة لعصر النبوة، وذلك العصر الذي اشتهرت فيه الفصاحة والبيان عند العرب، وكان سلاحهم الأول الذي يذودون به عن أعراضهم وشرفهم يقول الإمام الخطابي: "وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد (الخصومة الشديدة مع الميل عن الحق) فقال سبحانه: ﴿**ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون**﴾[٣] [٤].

وقد ثبت بالإستقراء، أن العرب كانوا في أرقى مستوى من الفصاحة والبيان، وهذا ثابت من خلال ما كتبوه من شعر ونثر، وقد كانت تعقد

---

(١) انظر: محمد الطاهر ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، ج ١٠ ص٢٠.

(٢) عبد الستار حامد، **"القرآن والإعجاز العلمي" في الإعجاز القرآني**، ص ٣٢٢.

(٣) الزخرف، ٥٨.

(٤) حمد بن سليمان بن ابراهيم الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، **بيان إعجاز القرآن** تحقيق وتعليق: محمد خاف الله أحمد، محمد زغلول سلام، منشور ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٢.

المساجلات بين الشعراء على مستوى ليس له نظير، حتى أنهم علقوا قصائدهم عند الكعبة والتي اشتهرت فيما بعد بالمعلقات.

وعندما بُعث الرسول صلى الله عليه وسلم، وخاطبهم بالقرآن، كانوا في أعلى مستوى من البيان والفصاحة، حيث إن أحفادهم لم يصلوا الى ذلك المستوى الذي وصلوه هم. والى جانب ذلك كانت قريش هي أفصح القبائل من العرب، ولهجتها أدق لهجات العرب وأوضحها اعراباً وبياناً.[١] وإن أنكر أحد ذلك فإن الباب مفتوح لكل معارض للقرآن الكريم، والتحدي ما زال قائماً فالباب مفتوح لكل من تحدثه نفسه على أن يأتي بمثل هذا القرآن فليجمع قواه الفكرية والجسدية وليجمع مع من يشاء فلن يأتي بمثل القرآن.

ثالثاً: أن يتعذر معارضة المعجزة، مع عدم وجود مانع من المباراة.[٢]

وقد ثبت من خلال الآيات وجود التحدي الى جانب عدم وجود مانع من معارضته. وإذا تحققت معارضة القرآن فإنه لا يصبح معجزاً، وإلا ماذا يعني التحدي وإثبات عجز المُتحدى، ثم لا معنى لهذا التحدي الا أن يكون في طاقتهم أن يميزوا ما بين القرآن الذي هو كلام الله، وبين ما هو كلام البشر، وقد دل على عدم وجود مانع من المباراة أمور ثلاثة هي:[٣]

١- جانب اللغة: وقد ثبت أن العرب كانوا قادة في الفصاحة والبيان والبلاغة، ثم إن القرآن قد نزل بلسانهم ولغتهم وتحداهم بما يعرفون ويعلمون.

٢- جانب المعنى: فلم يأت القرآن بجمل لا يُفهم معناها، إنما جاء القرآن بكلام يفهمه أقلهم فصاحة وبيانا، فكيف بخطبائهم وشعرائهم؟.

٣- جانب الزمن: وهو أن القرآن الكريم نزل منجماً، خلال ثلاث وعشرين سنة ليتسع مجال المعارضة.

---

(١) صلاح الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص ٧١.

(٢) سعد الدين السيد صالح، **المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم**، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣ ص٤٨، وانظر قحطان الدوري، التحدي في آيات الإعجاز، ص ٣.

(٣) قحطان الدوري، **التحدي في آيات الإعجاز**، ص ١٠.

وقد كان هدف معارضي القرآن هو نظم سورة مثله، وذلك من أجل إثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو مدعٍ للنبوة، وليس نبياً، فيتسنى لهم حينها تفريق أتباعه. ولكن الذي حصل هو أنه ثبت عجزهم، فاختاروا طريق السيف. يقول الامام الخطابي: (ولو كان ذلك في وسعهم (أي معارضته) وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الامور الخطيرة ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة[١]، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول الى الحزن الوعر من الفعل، وهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذو لب. وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام، ووفارة العقول والألباب. وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون)[٢][٣].

هذه أبرز شروط الإعجاز، فإذا ما توافرت هذه الشروط في أي موضوع أو وجه من الوجوه المطروحة، فإنه يصح اطلاق الإعجاز عليها، وإذا ما اختل شرط من الشروط، فإن ذلك يعني عدم إعجازه، وهذا ما ينطبق على كثير من وجوه الإعجاز التي نص عليها كثير من العلماء وخاصة فيما يتعلق بمضامين القرآن من العلوم والمعارف.

ولست ممن ينكر موضوعات القرآن الكريم في أنها ليست من أوجه الإعجاز القرآني، ولكن يجب التفريق بين أمرين أولهما أن الإعجاز الذي وقع به التحدي هو الإعجاز البياني، والأمر الثاني أن الموضوعات القرآنية من تشريع وغيب ومكنون وغيرها من الموضوعات هي أوجه للإعجاز القرآني لكن التحدي لم يكن مقصوداً بها، فهي إعجاز قرآني له حججه وأودلته إلا أن التحدي لم يكن مقصوداً فيها. والله تعالى أعلم.

---

(١) الفواقر من الفاقرة وهي الداهية. انظر: **المعجم الوسيط**، ج٢، ص٧٠٤.

(٢) الخطابي، **بيان أعجاز القرآن**، ص ص ٢١-٢٢.

(٣) المفلقون من أفلق الشاعر أي أتى بما يُعجب في شعره والمصاقع من صقع والمصقع البليغ يتقن في مذاهب القول. انظر: المعجم الوسيط، ج١، ص٢٠.

وقد أشرت في المبحث الثاني إلى الملاحظتين الهامتين التي أشار إليهما الاستاذ محمود شاكر وبين فيهما، أن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي، إنما هو تحد بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك. فما هو بتحدٍّ بالإخبار بالغيب المكنون، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزيله.[1]

لذلك فإني أتفق مع العلماء الذين قالوا بأن التحدي وقع في الوجه البياني فقط ولم يقع التحدي بأوجه الإعجاز الأخرى.

---

(١) انظر: ص١٤ من هذه الرسالة.

المبحث الرابع: أوجه الإعجاز.

تمهيد:

شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون القرآن الكريم معجزة آخر الرسالات السماوية، وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تكون معجزة القرآن متجددة مع كل عصر وزمان، فكانت المعجزة البيانية في عصر البيان والفصاحة وما زالت هي في عصرنا هذا الوجه البارز والذي وقع به التحدي. وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تكون معجزة القرآن عقلية؛ ذلك أن من شأن المعجزة العقلية أن تستمر باستمرار التفكير وهذا خلاف المعجزة الحسية والتي تنقرض بانقراض عصرها. وقد دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً)[١] ومعنى هذا أن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار، وهذا بعكس المعجزة العقلية التي تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يُشاهَد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يُشاهَد بعين العقل باقٍ يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً.[٢]

وكون المعجزة القرآنية عقلية أدى إلى تعدد أوجه الإعجاز فيها، فكانت المعجزة البيانية أولاً، ثم المعجزة التشريعية، والعلمية أو الكونية وغيرها من أوجه الإعجاز التي ذكرها العلماء في كتبهم.

وقد بالغ كثير من العلماء في هذه الأوجه، حيث بلغت عند السيوطي خمسة وثلاثين وجهاً وحصرها الرماني في سبعة أوجه[٣].

---

(١) رواه البخاري، انظر: أحمد بن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ت(٨٥٢ هـ)، الطبعة الثانية، دار الريان للتراث، مصر، ١٩٨٨، ج٨، ص٦١٩، حديث رقم ٤٩٨١.

(٢) انظر: جلال الدين السيوطي، **الاتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبوالفضل، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٧، ج٤ ص٣. بتصرف.

(٣) أبو الحسن على بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦هـ)، **النكت في إعجاز القرآن**، تحقيق محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، ص٧٥.

وقد آثرت في هذا الفصل أن أتكلم عن أبرز أوجه الإعجاز التالية والتي جعلتها في مطالب خمسة هي:

المطلب الأول: الاعجاز البياني.

المطلب الثاني: الاعجاز التشريعي.

المطلب الثالث: الاعجاز الغيبي.

المطلب الرابع: الاعجاز العلمي.

المطلب الخامس: الاعجاز النفسي.

المطلب الأول: الاعجاز البياني:

بعث الله الرسول صلى الله عليه وسلم في العرب وهم في قمة فصاحتهم؛ فجاء القرآن معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم متحدياً لهم بما يتقنونه ويجيدونه فكان الإعجاز البياني من أعظم وجوه الإعجاز القرآني.

وذلك لعدة وجوه أبرزها:

أولاً: جاء التحدي لمعارضي القرآن من جهة البيان والبلاغة، فقد ثبت أن التحدي المقصود من خلال آيات التحدي، هو تحدٍ ببلاغة القرآن وفصاحته، وأنه ليس تحدٍ بمضمون القرآن ودل عليه قوله تعالى ﴿**قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات**﴾[1]. فلو كان التحدي بغير بيانه لما تحداهم بالإتيان بكلام مفترى مشابهٍ للقرآن ببيانه وفصاحته.

ثانياً: يعتبر البيان شاملا لجميع آيات القرآن، فما من سورة أو آية، إلا وجاءت على نسق عالٍ من البلاغة والبيان والفصاحة. وهو بهذا مخالف لأوجه الإعجاز الأخرى، يقول الامام الخطابي: (وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الاخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، نحو قوله سبحانه: ﴿**الم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين**﴾[2]... ونحوها من الأخبار التي صدّقت أقوالها مواقع أكوانها. قلت (أي الخطابي): ولا يُشك في أن هذا

---

(١) هود: ١٣.

(٢) الروم: ١-٣.

وما أشبهه من أخباره نوع من انواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال ﴿**فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾[١]. فدل على أن المعنى فيه (التحدي) غيرُ ما ذهبوا إليه)[٢].

ثالثاً: اتفق العلماء على أن المعجزة كانت تأتي من جنس ما برع به القوم المرسل لهم النبي، فجاءت معجزة القرآن من جنس ما برع به العرب.

لهذه الأسباب وغيرها كان الاعجاز البياني أعظم وجوه الإعجاز، وقد نص عليه أكثر العلماء، يقول الامام الخطابي: "وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة. وهم الأكثرون من علماء أهل النظر"[٣] ويقول الامام السيوطي نقلاً عن ابن عطية: "الصحيح والذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه، أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه"[٤] وبمثل هذا القول قال الرماني[٥]. والباقلاني الذي يقول: "أنه (أي القرآن) بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة الى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه، والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة"[٦]. وكذلك قال به الجرجاني[٧] وغيره من العلماء المتقدمين.

أما كيفية فصاحته وبلاغته فقد فصل العلماء ذلك في مراجعهم وبينوا أنه جاء بأفصح المعاني وأرقاها، مبايناً لكلام البشر على نظم لا يجاريه نظم.

---

(١) البقرة: ٢٣.

(٢) الخطابي، **بيان إعجاز القرآن**، ص ص ٢٣-٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص٢٤.

(٤) السيوطي، **الاتقان في علوم القرآن**، ج٤، ص٨.

(٥) الرماني، **النكت في إعجاز القرآن**، ص٧٥.

(٦) الباقلاني، **إعجاز القرآن**، ص٨٦.

(٧) عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، تصحيح وتعليق محمد عبده، محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٤ ص٢٤٩.

وقد قسم العلماء البلاغة إلى طبقات ثلاثة هي: أعلى طبقة وأدنى طبقة، وطبقة وسطى بين الطبقتين، وقد كان القرآن الكريم في أعلى طبقة من طبقات البلاغة. يقول الرماني في النكت: "فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك، فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس".(١)

"وقد تميز القرآن بأسلوب كان مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء الا وهو معجز. وكان أسلوب الكلام عندهم قبيلاً واحداً وجنساً معروفا، ليس إلا الحرُّ من المنطق والجزل من الخطاب، وإلا أطراد النسق وتوثيق السرد وفصاحة العبارة وحسن إئتلافه... لا يتكلفون لتركيب، ولا يتلّومون على صنعة، وإنما تؤاتيهم الفطرة وتحدهم الطبيعة... فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان النطق، ... وَرَدَ عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود، حتى أحسُّوا بضعف الفطرة القوية وتخلف الملكة المستحكمة؛ ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه".(٢)

وقد فصل العلماء كثيراً في إعجاز القرآن البياني سواء كان ذلك في كتابة العلماء المتقدمين أو المتأخرين، ففصلوا في البلاغة وأقسامها كما فعل الخطابي والرماني والجرجاني والباقلاني، وغيرهم، إلى جانب ذلك فصل علماء(٣) آخرون بوجوه أخرى للإعجاز البياني، فخرج الجرجاني بنظرية النظم والتي يدور حولها أكثر كلام العلماء المحدثين، وقد بين الجرجاني أن الإعجاز بنظم الكلام لا بالكلمة المفردة، يقول في دلائل الإعجاز: "قد أردنا أن نستأنف تقريراً نزيد به الناس تبصيراً أنهم في عمياء من أمرهم، حتى يسلكوا المسلك الذي

---

(١) الرماني، **النكت في إعجاز القرآن**، ص ٧٥.

(٢) الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص ص ١٦١-١٦٢. بتصرف.

(٣) انظر: الخطابي في **ثلاث رسائل لإعجاز القرآن الكريم**، ص٢٤، وانظر: الباقلاني في **إعجاز القرآن**، ص١٠٢.

سلكناه، ويفرغوا خواطرهم لتأمل ما استخرجناه، وإنهم ما لم يأخذوا أنفسهم بذلك ولم يجردوا عناياتهم له في غرور، كمن يَعد نفسه الريّ من السراب اللامع، ... يقال لهم إنكم تتلون قول الله تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله**﴾[1]... فقولوا الآن: أيجوز أن يكون بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذي إذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله؟ ولا بد من "لا" لأنهم إن قالوا: يجوز. أبطلوا التحدي من حيث أن التحدي كما لا يخفى مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف، ولا تصح المطالبة بالاتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوماً للمطالب؛ ...

ثم إن هذا الوصف ينبغي أن يكون وصفاً قد تحدد بالقرآن، وأثراً لم يوجد في غيره ولم يعرف قبل نزوله. وإذا كان كذلك فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في الكلمة المفردة، لأن تقدير كونه فيها يؤدي الى المحال، وهو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة قد حدث في حذاقة حروفها، وأصدائها أوصاف لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن، وتكون قد اختصت في أنفسها. بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها اذا كانت متلوّة في القرآن لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن[2].

والحق أنه لو أخذنا لفظة من ألفاظ القرآن ووضعناها في نظم لأفصح العرب فهل هذه اللفظة ستعطي ذلك الإعجاز الذي تعطيه في موضعها القرآني؟ حتماً إن الجواب سيكون بالنفي.

وإن كان الجرجاني قد قال بنظرية النظم، وبنى عليها الإعجاز، إلا أن بعض العلماء، ركزوا على الكلمة القرآنية وبينوا أنها أصل الدقة في التعبير،

---

(١) الإسراء: ٨٨.

(٢) انظر: الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص ص ٢٤٩-٢٥٠ بتصرف.

والوضوح في المعنى، والصدق في الدلالة، لأن الكلمة إذا تمكنت في موضعها الأصل دلت على المعنى كله، وإذا حشرت حشراً، دلت على بعض المعنى أو ألجأت إلى غيره[١].

ولا يختلف اثنان في أن القرآن قد صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني[٢].

فإذا كان هناك دور للكلمة القرآنية في إعجاز القرآن فهو من باب أنها من أفصح الألفاظ، أُختيرت بعناية، وقد وضعت في أفصح نظم فصارت بذلك النظم معجزة، أما إذا ما انتزعت هذه اللفظة ووضعت في كلام بليغ أو فصيح فإن وجه الإعجاز لا يبقى معها. يقول ابن عطية: "وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد، ونحن يتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب -يومئذ- في سلامة الذوق، وجودة القريحة"[٣].

ومن الأمثلة البليغة على الإعجاز البياني ما ذكر في قوله تعالى ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾[٤].

يقول ابن عاشور "وقد كانت هذه الآية مثالاً من أمثلة دقائق الإعجاز القرآني في التفسير فقد ذُكر أن امرأة أنشدت:

أستغفر الله لذنبي كله ... قتلت إنساناً بغير حله

مثل غزال ناعماً في دله ... انتصف الليل ولم أصله

---

(١) انظر: فضل حسن عباس، **إعجاز القرآن الكريم**، ص ١٦٧. بتصرف.

(٢) انظر: الخطابي، **بيان إعجاز القرآن**، ص ٢٧.

(٣) نعيم الحمصي، **فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق**، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٩٨٠ ص٩٥.

(٤) القصص: ٧.

وهي تريد التورية بالقرآن وكان الأصمعي يستمع إليها، فقال: قاتلك الله ما أفصحك. فقالت له: "أويعد هذا فصاحة مع قوله تعالى ﴿**وأوحينا إلى أم موسى** ...الآية﴾ فجمع في آية واحدة خبرين، وأمرين، ونهيين وبشارتين"[١].

فالخبران هما ﴿**أوحينا**﴾ و﴿**فإذا خفت عليه**﴾ والأمران هما ﴿**أرضعيه**﴾ و﴿**ألقيه**﴾ والنهيان ﴿**ولا تخافي**﴾ و﴿**لا تحزني**﴾ والبشارتان ﴿**إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾ فهذا بيان آية واحدة من القرآن الكريم فكيف إذا ما أريد الوقوف عند بيان سورة واحدة من سوره، إن القلم ليعجز أمام هذه الفصاحة وأمام هذا البيان من الكلام.

المطلب الثاني: الإعجاز التشريعي:

يتميز التشريع الاسلامي أو التشريع القرآني، بأنه لم ينتج عن فكرة أو تجربة؛ فقد أنزل الله القرآن على سيدنامحمد صلى الله عليه وسلم، النبي الأمي في بقعة من جزيرة العرب لم تقم عليها دولة ولم تخضع لسلطة خارجية، فكانت هذه البقعة بالذات أبعد بقاع جزيرة العرب عن معرفة نظام الحكم ومناهج التشريع.[٢]

وقد قام التشريع الاسلامي في القرآن الكريم، على أسس ثلاثة هي:[٣]

الأساس الأول: عدم الحرج، وقد دل على ذلك أدلة كثيرة من القرآن والسنة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ويضع عنهم الأغلال التي كانت عليهم**﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿**ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**﴾[٥].

---

(١) انظر: **التحرير والتنوير**، ج١٩، ص٧٤.

(٢) أحمد بن حمد الخليلي، **جواهر التفسير، أنوار من بيان التنزيل**، الطبعة الأولى، مكتبة الاستقامة، عُمان، ١٩٨٤، ج١ ص٨٠.

(٣) محمد الخضري بك، **تاريخ التشريع الاسلامي**، الطبعة الأولى، إدارة البحوث الاسلاميةوالدعوة والافتاء، الهند، ١٩٨٣، ص ص ١٧-٢٠ بتصرف.

(٤) الأعراف: ١٥٧.

(٥) البقرة: ٢٨٦.

الأساس الثاني: تقليل التكاليف. وهذا الأساس نتيجة لازمة للأساس للأول، لأن في كثرة التكاليف احراجاً. والمتطلع على آيات الأوامر والنواهي في القرآن الكريم يجدها قليلة يمكن العلم بها في زمن قليل، وسهلة يمكن العمل بها بسهولة. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إنْ تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزّل القرآن تُبدَ لكم. عفا الله عنها، والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين.**[1]﴾

أما الأساس الثالث: فهو التدرج في التشريع، فلم تأت الأحكام القرآنية نهائية من أول نزول، فقد راعى القرآن حال العرب الذين استحكمت فيهم عادات منها ما هو صالح للبقاء ولا ضرر منه على تكوين الأمة، ومنها ما هو ضار يريد الشارع إبعادهم عنه، فاقتضت حكمة الله أن يتدرج بهم شيئاً فشيئاً لبيان حكمه، وإكمال دينه.

أما عن سبب إعجاز التشريع القرآني فذلك (لأن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع وإقامة العلاقات بين أحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة، لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية)[2].

إن مثالاً واحداً يبين لنا تميز التشريع الاسلامي على غيره من التشريعات الوضعية. فقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يتنوع الجنس الإنساني إلى نوعين ذكر وأنثى، لكل واحد خصائصه التكوينية لا يصح تجاهلها في بناء الحياة المدنية؛ إذ لو أعطيت المرأة أحكام الرجل في كل شيء لفاتت حكمة التنويع في الخلق، وكذلك لو أعطي الرجل أحكام المرأة، فهم يجهلون الخصائص الفطرية التي خلقها الله للمرأة والرجل على حد سواء. وهذا الأمر لم ينظر له إلا

---

(١) المائدة: ١٠١-١٠٢.

(٢) أبو زهرة، **المعجزة الكبرى**، ص ص ٤٢٧-٤٢٨.

التشريع الاسلامي. والذين نظروا نظرة واقعية الى طبيعة البشر أدركوا سر التفرقة بين الذكر والأنثى في التشريع الإسلامي.[١]

وإن نظرة متفحصة في التشريع الاسلامي، تجبرنا على القول أن المرأة لم تتبوأ مكانة أسمى من تلك المكانة التي أعطاها إياها الاسلام. وقد بدأت تلك المكانة منذ ولادتها بتغيير تلك النظرة المتشائمة بولادتها، ثم بتحريم الوأد، وحقها في التعلم والتفقه ومن ثم حقها في اختيار شريك حياتها وتربية أولادها، وحتى أن لها الحق في مهرها إذا ما أراد زوجها أن يطلقها وعليه نفقة يلزمه الشرع بها على عياله، كما كفل لها حق العمل في مجالات لا تتعارض مع خصائصها الفطرية. وإن نظرة أخرى في التشريعات الأخرى تبين لنا تميز المرأة في التشريع الاسلامي ورقي مكانتها التي كفلها لها الاسلام وحده، ولم تكفلها تلك التشريعات والقوانين الأخرى.

المطلب الثالث: الإعجاز الغيبي:

حوادث الغيب من أهم مواضيع القرآن، وتبرز أهميتها أنها جاءت على يد رجل لم يجلس عند معلمين ولم يقرأ كتب الأولين ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك، إذن لارتاب المبطلون**﴾[٢]. وتتميز أخبار القرآن أنها جاءت دقيقة في تفاصيلها حتى إن التوراة والإنجيل لم تقف عندها بمثل دقة القرآن الكريم.

وقد قسم العلماء الاخبار الغيبية الى أقسام ثلاثة هي:

أولاً: أخبار الغيب الماضي[٣]: وتمثل هذا القسم بالاخبار عن قصص السابقين، على شكل قصص قرآنية، وقد تأتي هذه القصة على شكل قصة نبي من الأنبياء مع قومه أو قصة رجل صالح مع قومه ومثال الأول كثير منها قصة

(١) انظر: الخليلي، **جواهر التفسير**، ج١، ص ص٨١-٨٢، بتصرف.

(٢) العنكبوت: ٤٩.

(٣) انظر، عباس، **إعجاز القرآن الكريم**، ص٣٣٣.

موسى عليه السلام وقصة هود وقصة صالح وغيرها، ومثال الثاني قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها أو قصة صاحب الجنتين وغيرها من القصص.[١]

ووجه الإعجاز في غيب الماضي يتمثل في أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب حتى يتعلم ذلك منهم، وإلى جانب ذلك فقد كان قومه أميين لا يعرفون هذه القصص، فهم من أهل البيان والبلاغة في الكلام. والمعجزة ليست في ذكر القصة فقط لكن المعجزة تتمثل في ذكر القرآن لأدق التفاصيل التي لم تذكر في كتب أهل الكتاب[٢].

وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع الى أنباء الغيب التي لم يكن يعلمها أحد، بل إن الآيات أشارت الى عدم علم الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الأخبار من مثل قوله تعالى: ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا، فاصبر إن العاقبة للمتقين**﴾[٣]، فالآية إشارة واضحة على عدم علمهم بهذه الأنباء وإشارة على عجزهم عن إخبار الناس بالغيب الماضي.

ثانياً: غيب الحاضر وهو الإخبار عن الشؤون المعاصرة للرسول صلى الله عليه وسلم مما لا يمكن لبشر أن يجزم فيه بشيء[٤]. فقد هتك القرآن حاجب الغيب، حين كان يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بما كان يدور خارج المكان الذي هو فيه، متغلغلاً الى أعماق نفوس اعدائه. مثل قوله تعالى: ﴿**ألم تر الى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان**

---

(١) انظر: أحمد عبيد الكبيسي، **الإعجاز القرآني في وصف اليهود في الإعجاز القرآني**، ص٢٧.

(٢) محمد أبو زهرة، **المعجزة الكبرى**، ص ٣٣٩.

(٣) هود: ٤٩.

(٤) أحمد الخليلي، **جواهر التفسير**، ج١، ص١٢١.

ومعصية الرسول، وإذا جاؤوك حيّوك بما لم يحيّك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول. حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾[1]. فهذا وجه من وجوه الاعجاز القرآني فهو من الإعجاز القرآني الذي يقوم على هتك حواجز الغيب بكافة أشكاله.[2] حيث إن هذه الآية قد نزلت في قوم من اليهود والمنافقين نهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التناجي بحضرة المؤمنين فلم ينتهوا[3]. قال ابن كثير عن مقاتل بن حيان: (كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى **﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه﴾**[4].

ومن أشكال غيب الحاضر، كلام القرآن عن عوالم الغيب الموجودة، والتي لم يرها الناس بأبصارهم ولم يتعاملوا معها بحواسهم، ومن ذلك حديث القرآن عن الذات الإلهية، وعالم الملائكة، وعالم الجن والشياطين، ثم الحديث عن الجنة والنار، ومشاهد الموت والاحتضار وعالم البرزخ والقبر.[5] من مثل قوله تعالى **﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة﴾**[6]، وقوله تعالى: **﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾**[7]، وقوله تعالى: **﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾**[8]، وغيرها من الآيات.

---

(١) المجادلة: ٨.

(٢) أحمد عبيد الكبيسي، **"الإعجاز القرآني في وصف اليهود"، في الإعجاز القرآني**، ص ص٢٦-٢٧.

(٣) انظر، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، جـ٢٨، ص٢٨.

(٤) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، جـ٤، ص٢٩١.

(٥) انظر: الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٦) النور: ٣٥.

(٧) فاطر: ١.

(٨) الحجر: ٢٧.

ومن المجالات الأخرى لغيب الحاضر كشف القرآن لأسرار مكائد المنافقين، وأمثلة هذا المجال كثيرة في القرآن ويكفي للدلالة على ذلك قوله تعالى: ﴿**يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا، إن الله مخرج ما تحذرون**﴾.[١] [٢]

ثالثاً: غيب المستقبل:[٣] وهو كثير في القرآن ويكفي فيه الإشارة الى بعض المواضيع. وهو أبلغ في الإعجاز من النوعين السابقين، لأن الأول قد وقع والآخر يقع أو وقع أيضاً أما الحديث عن أمر لم يقع فهو من أبلغ الإعجاز الغيبي.

ومن الإشارات القرآنية الى غيب المستقبل هو جزم القرآن بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين وذلك في قوله تعالى: ﴿**ألم. غلبت الروم. في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين.**[٤]﴾ ومن ذلك أيضاً إشارة القرآن الى نهاية عدد من زعماء المشركين، حيث أخبر القرآن عن مصائرهم وجزم بأنهم سيموتون على الشرك فمن هؤلاء أبو لهب الذي نزلت بحقه وحق زوجته سورة المسد ﴿**تبت يدا أبي لهب وتبّ. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى ناراً ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد**﴾[٥] وكذلك تحدث القرآن عن مصير أبي جهل وذلك بإشارة القرآن في سورة الدخان بقوله تعالى: ﴿**إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم، كالمهل يغلي في البطون. كغلي الحميم. خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم. ثم صبوا فوق رأسه من الحميم. ذق إنك أنت العزيز الكريم**﴾[٦] ولا شك في أن أبا لهب وأبا جهل قد ماتا على الكفر وكلاهما قُتل في معركة بدر. فقد روى ابن كثير عن عكرمة قال لقي رسول الله

---

(١) التوبة: ٦٤.

(٢) انظر الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص ص ٢٤٩-٢٥١.

(٣) فضل عباس، **إعجاز القرآن الكريم**، ص٣٣٣.ش

(٤) الروم: ١-٣.

(٥) المسد: ١-٥.

(٦) الدخان: ٤٣-٤٩.

صلى الله عليه وسلم أبا جهل لعنه الله فقال "إن الله تعالى أمرني أن أقول لك أولى لك فأولى" قال فنزع ثوبه من يده وقال ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ولقد علمت أني أمنع أصل البطحاء وأنا العزيز الكريم. قال فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل ﴿**ذق إنك أنت العزيز الكريم**﴾.(١)

المطلب الرابع: الإعجاز العلمي:

لم ينزل الله القرآن الكريم كتاباً في الطب أو الفلك، بل أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون هداية وشفاءً ورحمةً ونوراً ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به، فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً**﴾(٢) فالقرآن الكريم صراط وهداية وكتاب دعوة، ومنهج حياة. "ونور تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة، ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محدداً مرسوماً... حيث تجد النفس من هذا النور ما ينير جوانبها.. فترى كل شيء فيها ومن حولها واضحاً".(٣)

وإذا كان الله سبحانه قد اختار القرآن الكريم ليكون آخر كتبه تنزيلاً، وآخر كتبه تشريعاً، وآخر كتبه إعجازاً واستمراراً في الإعجاز، فإن ذلك لا يمنع أن يكون القرآن كتاب دعوة للعلم عن طريق بعض الآيات والحقائق المبثوثة في السور القرآنية، فقد جاءت دعوة القرآن إلى العلم عن طريق التدبر بالإنسان نفسه والنظر في آيات الله سبحانه وتعالى، دعوة صريحة ودلت عليها آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**﴾(٤).

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص١٥٧.

(٢) النساء: ١٧٤-١٧٥.

(٣) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٢، ص٨٢٢. بتصرف.

(٤) فصلت: ٥٣.

وقد كانت السمة البارزة في عصر التنزيل بيانه واسلوبه الذي فاق كلام كل بليغ وفصيح، وكانت سمة عصرنا الحاضر أنه عصر العلم والتقدم التكنولوجي، فتقدم الإنسان بالعلم المادي، واختراع الآلات ووضع النظريات والحقائق حتى أصبح العالم كالقرية الصغيرة.

وفي ظل هذا التقدم العلمي الهائل بقي كتاب الله سبحانه وتعالى نوراً ساطعاً يتحدى كل معارضيه، وإذا كان قد خاطبهم بأسلوبه وبيانه قبل أربعة عشر قرناً فإنه يخاطبهم الآن بالحقائق العلمية التي جاءت آياته تنطق بها قبل أن يكتشفها العلم الحديث.

ويقرر العلماء "أن القرآن قد حوى سبعمائة وخمسين آية كونية وعلمية"[١] مبثوثة في سور عدة من سور القرآن الكريم. وقد أخذت هذه الحقائق تتكشف برهة بعد أخرى بما لا يبقى معه شك في عجز المخلوقين عن الاتيان بمثله.

وقد انكب العلماء على هذه الآيات العلمية في القرآن الكريم يفسرونها تفسيراً علمياً، وقدموها للناس، فزادت ثقة المؤمن وقربت كثيراً من معارضيه الى القرآن الكريم وجعلتهم يسلمون[٢]، وقادت كثيراً من الغربيين إلى القول بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.[٣]

أما عن وجه اعتبار الإعجاز العلمي وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم. فهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم والذي نص القرآن الكريم على أميته قد جاءت آيات القرآن فوق مستواه العلمي وفوق المستوى العلمي لعصر نزول القرآن، فلو كان القرآن من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم كما زعم الكثير من الكفار، فمن كان يدريه بالحقائق العلمية العجيبة التي ذكرها القرآن، والتي

(١) عبد الرزاق نوفل، **القرآن والعلم الحديث**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤، ص٢٥.

(٢) ممن أسلم بسبب الآيات العلمية الطبيب الفرنسي موريس بوكاي الذي ألف كتاباً أسماه "الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة" والذي خرج بنتيجة مفادها أن القرآن الكريم قد حوى آيات علمية وحقائق كونية لم يكتشفها العلماء لغاية الآن.

(٣) انظر: الخالدي: **البيان في إعجاز القرآن** ص٢٦٠. بتصرف.

لم يكتشف العلماء صدقها الا في عصرنا هذا؟. فبهذا صار وجها من وجوه إعجاز القرآن[١].

وقد تكلم القرآن عن حقائق علمية كثيرة من أبرزها. خلق الانسان يقول تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم انشاناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾[٢].

وقد بينت هذه الآيات مبدأ خلق الانسان وأطواره، ويتبين وجه الإعجاز فيها أنها نزلت على نبي أمي لم يكن يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه ولم يسمع محاضرات في علوم الأجنة، ولم يكن قومه على علم بهذه الأمور، فقررت الآية أولاً أن أساس الانسان هو الطين، وشواهد ذلك موجودة في الإنسان تدل على صدق هذا الخبر فعناصر التراب كلها موجودة في الانسان، ثم بينت الآية السلسلة التي يمر بها الجنين في الرحم والذي أطلقت عليه الآية"القرار المكين" وهذا اللفظ فيه من الدقة البالغة ما يفوق العلم الحديث، فالرحم تحيط به عظام الحوض التي تحفظ سلامة الجنين مما يصيب بطن أمه وظهرها من اللكمات والهزات، وعلى بابه حماية للجنين تتكون من إفرازات تقيه مخاطر الجراثيم التي يُخشى منها الفتك به لولا حيلولتها دون ذلك. وحده العلم الحديث هو الذي يفسر لنا بوضوح مقصود الآية حيث يقرر أنه لا تنبت خلية من خلايا اللحم حتى تتكون جميع خلايا العظام، وتبين الآية تحول الجنين بعد ذلك الى خلق آخر يجتمع منه صورة الإنسان وتنفخ فيه الروح. وهذه الحقيقة أشار إليها القرآن قبل أربعة عشر قرناً على يد رجل أميّ نشأ في بيئة بدائية لا تعرف العلم ولا تتصوره، أفلا يكفي هذا دليلاً على صدق القرآن وأنه معجز وأنه من عند رب العالمين[٣].

---

(١) المصدر السابق: ص ٦٠.

(٢) المؤمنون: ١٢-١٤.

(٣) انظر: الخليلي، **جواهر التفسير**، ج١ ص ص١٤٠-١٤٢ بتصرف.

وإلى جانب حديث القرآن عن الإنسان، جاءت آيات كونية تتحدث عن ظواهر كونية تتكلم عن الأرض، وعن كرويتها *، ودورانها، وتكلمت الآيات عن ظاهرة الزوجية، من مثل قوله تعالى: ﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين**﴾[١]، وجاءت آيات أخرى لتخبرنا عن المطر، وعن السماء، وعن النبات، كما تكلمت آيات عن الفلك وكل ذلك مختوم بقوله تعالى: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾[٢].

لقد جاءت دعوة القرآن إلى العلم واضحة، فقد وجهت الآيات الإنسان إلى التدبر والنظر في آيات الله في أكثر من موضع من القرآن الكريم، وجاءت الآيات تدعوه للتدبر في نفسه وجسمه ثم في الكون من حوله، يقول تعالى: ﴿**وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[٣]. ثم وعد القرآن عن مزيد من الاكتشافات في النفس والآفاق، وأخبر أن هذا الكشف والبيان سيتحقق في مستقبل البشرية[٤] يقول رب العزة: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق، وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد**﴾[٥].

وإذا كان القرآن قد تحدث عن الظواهر العلمية والايات الكونية فإنه لا بد من التفريق بين أمرين في العلم وهما النظرية العلمية والتي هي ما زالت في طور الافتراض والظن وبين الحقيقة العلمية الثابتة التي نستطيع الإستناد عليها، وحتى لا يقع العلماء في أخطاء لتفسيرهم للآيات العلمية فيحملون القرآن تفسيراً علمياً مبنياً على نظرية علمية ما زالت في طور التخمين،

---

* من مثل قوله تعالى ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها، بحيث تصبح صالحة للسير عليها، انظر في **ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٨١٦. ومن مثل قوله تعالى ﴿**والشمس تجري لمستقر لها**﴾ يس٣٨. وغيرها من الآيات.

(١) الذاريات: ٤٩.

(٢) الإسراء: ٨٥.

(٣) الذاريات: ٢٠-٢١.

(٤) الخالدي: **البيان في إعجاز القرآن**، ص ص ٢٦٤.

(٥) فصلت: ٥٣.

فيجب أن يكون التفسير العلمي مرتكزاً على حقيقة علمية ثابتة، فلا مانع حينها أن نتوسع في معنى الآيات القرآنية في هذا الجانب.[١]

المطلب الخامس: الإعجاز النفسي:

يُعد الإعجاز النفسي الى جانب الإعجاز العلمي من أبرز وجوه الإعجاز في عصرنا هذا، فقد جاء الحديث عن الإعجاز النفسي للقرآن الكريم في عصرنا الحاضر، وفي ظل حديث العلماء عن نظريات علم النفس الحديث. ومع بروز هذه النظريات وتطبيقها على الواقع أخذ العلماء ينظرون في القرآن نظرة فاحصة باحثة عن مثل هذه النظريات في القرآن الكريم.

وإن حديث القرآن عن النفس الانسانية هو معلومات يجدها كلٌ منا في نفسه، لكن القرآن الكريم يرغب ويرهب، يبشر وينذر، يعد ويحذر، إن ذلك لا يُعد اعجازاً نفسياً[٢].

"إن الإعجاز النفسي في القرآن هو ما نلمحه في تلك الآيات وهي تتحدث عن أصناف الناس ومواقفهم ومشاعرهم، وما يفرحهم وما يحزنهم، ما نجده من بيان لمكنونات النفس وخفاياها، ودوافعها في أي القرآن الكريم قد يكون ذلك في القضية القرآنية، وقد يكون ذلك في الحديث عن أعداء المسلمين، وقد يكون ذلك في الدنيا وقد يكون في الآخرة كذلك، فإنك لتقرأ الآية من القرآن الكريم؛ وإذ بها تصور نفسية أولئك الذين تتحدث عنهم صورة واضحة المعالم، بينة الإتجاه، لا تهمل جزئية، ولا تنسى مشهداً"[٣].

وقد جاءت نماذج عدة تصور لنا أحوال الناس، فجاءت آيات قرآنية ووصفت لنا حال المؤمنين، وكذلك جاءت آيات بينت لنا صفات المنافقين

(١) انظر: الخالدي: **البيان في إعجاز القرآن**/ ص ص ٢٦٤-٢٦٦. بتصرف. ومما يشار إليه في هذا الجانب أن التفسير العلمي هو بين أخذ ورد بين علماء التفسير فهناك من توقف عنده ولم يأخذ به من قبل الشاطبي وهناك من أيده بشدة مثل الإمام الغزالي. انظر: فضل عباس، **إعجاز القرآن**، ص٢٥١-٢٦٠.

(٢) عباس، **إعجاز القرآن الكريم**، ص ٣٤٤.

(٣) المرجع ذاته، ص ص ٣٤٤-٣٤٠.

والكافرين من مثل قوله تعالى: ﴿**إذا جاءك المنافقون، قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون. اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله، إنهم ساء ما كانوا يعملون. ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون. وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم، كأنهم خُشبٌ مسندة، يحسبون كل صيحة عليهم، هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون**﴾[1].

"هذه الآيات من (سورة المنافقون) تضمنت حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ووسائلهم ومناوراتهم، وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب"[2].

"والآيات تبدأ بوصف طريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من الكفر، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو رسول الله. وحلفهم كذباً ليصدقهم المسلمون، واتخاذهم الإيمان وقاية يخفون وراءها حقيقة أمرهم ليخدعوا المسلمين بها"[3].

"ثم تقرر الآيات أنهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والإلتواء. وهم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف. والتعبير يرسمهم أبداً ملتفين حواليهم يتوجسون من كل حركة ومن كل حدوث ومن كل هاتف، يحسبونه يطلبهم، وقد عرف حقيقة أمرهم"[4].

---

(١) المنافقون: ١-٤.

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ٣٥٧٢/٦. بتصرف.

(٣) المرجع السابق، ٣٥٧٣/٦. بتصرف.

(٤) المرجع السابق، ٦/ ٣٥٧٤-٣٥٧٥. بتصرف.

فأي كتاب وصف لنا حال هؤلاء غير كتاب الله سبحانه وتعالى؟ وأي كتاب جاءت آياته ناطقة بكل ما نطق به العلماء غير كتاب الله سبحانه وتعالى؟ وكل ذلك جاء بين قوله تعالى: ﴿**وعلّم آدم الأسماء كلها**﴾[1] وبين قوله تعالى: ﴿**وقل ربِّ زدني علماً**﴾[2] مختومين بقوله تعالى: ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾[3].

---

(١) البقرة:٣١.

(٢) طه: ١١٤.

(٣) الإسراء: ٨٥.

الفصل الأول

إعجاز القرآن التأثيري؛ مفهومه، علاقته بالإعجاز النفسي، موقف العلماء منه، إشارة القرآن إلى إعجاز القرآن التأثيري

تمهيد

بينتُ في الفصل السابق أبرز أوجه الإعجاز القرآني، وتبين أن الإعجاز القرآني يتوجه نحو موضوعين هما الإعجاز البياني وهو ما يتحدث عن أسلوب القرآن وبلاغته وفصاحته، والإعجاز الموضوعي وهو ما يتحدث عن موضوعات القرآن المطروحة مثل: تشريع القرآن الكريم، وحقائق القرآن العلمية، وإخباره عن المغيبات وغيرها من الموضوعات التي ذكرت في القرآن الكريم.

وسأحاول في هذا الفصل أن أقف عند مفهوم الإعجاز التأثيري وعلاقته بالنفس وموقف العلماء منه إلى جانب إشارة القرآن إليه مقسماً الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم إعجاز القرآن التأثيري

المبحث الثاني: علاقة إعجاز القرآن التأثيري بالإعجاز النفسي

المبحث الثالث: موقف العلماء من إعجاز القرآن التأثيري

المبحث الرابع: إشارة القرآن إلى إعجاز القرآن التأثيري

المبحث الأول: مفهوم إعجاز القرآن التأثيري.

المطلب الأول: حقيقة إعجاز القرآن التأثيري.

وقفت سابقاً عند تعريف الإعجاز لغة أما عن التأثيري فهو من أثر الشيء، أي حصول ما يدل على وجوده. يقول تعالى: ﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا﴾[١] ويقول: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾[٢][٣]. فالتأثير مأخوذ من الأثر الذي يدل على حصول شيء سواء حسي أم معنوي.

أما عن حقيقة الإعجاز التأثيري فقد تحدث العلماء عنه، وعدوه وجهاً من أوجه الإعجاز القرآني، وقد وضعوا عدة تعاريف له، إلا أن هذه التعاريف انطلقت كلها من تعريف الإمام الخطابي والذي يعد أول من أشار إلى إعجاز القرآن التأثيري، لهذا سأحاول في هذا المبحث أن أبرز مفهوم الإعجاز التأثيري عند العلماء.

يقول الخطابي عن إعجاز القرآن التأثيري: "قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم. وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس. فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً. إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال..."[٤] لهذا نرى أن الخطابي يحدد مفهوم الإعجاز التأثيري بما يصنعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، وقد بين الخطابي أنه لا يوجد كلام منظوم له من التأثير على النفس مثل القرآن الكريم وقد شهد لهذا العدو قبل الصديق. يقول الخطابي: "فكم من عدو للرسول -صلى الله عليه وسلم- من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن. فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن

---

(١) الحديد: ٢٧.

(٢) الروم: ٥٠.

(٣) انظر الاصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٤٨٤.

(٤) الخطابي، **بيان إعجاز القرآن**، ص٧٠.

يتحولوا عن رأيهم الأول. وأن يركنوا إلى مسالمته. ويدخلوا في دينه وصارت عداواتهم موالاة. وكفرهم إيماناً"[١].

وللقاضي عياض رأي في الإعجاز التأثيري لا يختلف عن رأي الإمام الخطابي فهو يعده وجهاً من أوجه إعجاز القرآن ويقول حول ذلك: "ومنها (أي أوجه الإعجاز) الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حالة، وإنافة (علو مرتبته) خطره؛ وهي على المكذبين به أعظم، حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفوراً كما قال تعالى: ﴿**وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً**﴾[٢]؛ ويودون انقطاعه لكراهتهم له"[٣] فالقاضي عياض يؤكد على أن تأثير القرآن على المكذبين به أعظم منه على المصدقين به وذلك عائد لذكره فضائحهم، إلى جانب الأسلوب البياني الذي بهرهم. ولا شك أن تأثير القرآن على المؤمنين به أعظم من تأثيره على الكافرين والدليل على ذلك هو إيمانهم به وقد دلت على ذلك عدة آيات من القرآن منها قوله تعالى: ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾[٤]. فهذه الآية تبين مدى تأثير كلام الله سبحانه وتعالى على المؤمنين، فالقرآن الكريم أعظم تأثيراً على المؤمنين لإيمانهم به وذلك عائد لتأثرهم به أيضاً. أما الكافرون فإنهم يتأثرون به تأثيراً كبيراً فمنهم من يؤمن، ومنهم من يبقى على عناده مع تأثره به، فنجده لا يحب سماع القرآن، لما فيه من افتضاح أمره وهذا حاله مثل حال المنافقين الذين كانوا يخشون أن تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة تبين فضائحهم. يقول تعالى ﴿**يحذر المنافقون أن تُنَزَّل عليهم سورة تنبئهم بما في**

---

(١) المصدر ذاته، ص٧٠.

(٢) الإسراء: ٤٦.

(٣) أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (٤٧٦-٥٤٤هـ): **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، تحقيق علي محمد البجاوي، عيسى الحلبي وشركاه، مصر، ج١، ص٣٨٤.

(٤) الزمر: ٢٣.

قلوبهم، قل: استهزؤا. إن الله مخرج ما تحذرون﴾[١] فإن حذرهم هذا عائد لما يعرفونه من صدق القرآن الذي أثر فيهم.

هذان رأيان لعالمين من العلماء السابقين في إعجاز القرآن التأثيري، وتبين لنا تقارب وجهة النظر في هذا الجانب.

أما عن رأي العلماء المعاصرين، فإن الأمر لم يخرج عن ذلك النطاق، إلا أن التقدم العلمي ساعد العلماء المعاصرين في التوسع في هذا الجانب أكثر من العلماء السابقين.

يقول سيد قطب: "سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى، سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام، ومن جعل على بصره منهم غشاوة. وإذا تجاوزنا عن النفر القليل الذين كانت شخصية محمد -صلى الله عليه وسلم- وحدها هي داعيتهم إلى الإيمان في أول الأمر، كزوجه خديجة، ... فإننا نجد القرآن كان العامل الحاسم، أو أحد العوامل الحاسمة، في إيمان من آمنوا أوائل أيام الدعوة، يوم لم يكن لمحمد حول ولا طول، ويوم لم يكن للإسلام قوة ولا منعة)[٢].

يقرر سيد قطب أن للقرآن سحراً في نفوس سامعيه، وإن كنا نختلف مع سيد قطب في إطلاق تلك اللفظة وخاصة أن القرآن قد نفى عن نفسه أن يكون سحراً؛ بل إن كثيراً من معانديه قد أطلقوا عليه لفظ السحر، وهذا ما أشار إليه القرآن حين وصف الوليد بن المغيرة بقوله تعالى: ﴿**إنه فكر وقدّر، فقتل كيف قدر؟ ثم قتل! كيف قدر؟ ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال: إن**

---

(١) التوبة: ٦٤.

(٢) سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، الطبعة الرابعة عشرة، منشورات دار الشروق، بيروت، ١٩٩٣، ص١١ بتصرف.

﴿هذا إلا سحر يؤثر﴾[١] وإن كان سيد قطب يقصد بسحر القرآن هو استحواذه على نفوسهم إلا أننا لا نتفق معه في التسمية فقط من جانب أن القرآن قد نفى عن نفسه السحر. إلا أننا نتفق مع سيد قطب في اعتراف القاصي والداني لتأثير القرآن على النفوس، ونتفق معه أيضاً في منبع تأثير القرآن على النفس الإنسانية. يقول سيد: "ومن هنا تلتقي قصة الكفر بقصة الإيمان، في الإقرار بسحر هذا القرآن؛ وتلتقي على الإقرار به شخصيتان قويتان، بينهما من المدى في الاختلاف ما بين عمر بن الخطاب والوليد بن المغيرة، فتشرح التقوى صدر عمر للإسلام، وتصد الكبرياء الوليد عن الإذعان؛ ويذهبان في طريقيهما متدابرين، بعد أن يلتقيا في نقطة واحدة: نقطة الاقرار بسحر القرآن"[٢].

أما عن كيفية استحواذ القرآن على العرب وعن كيفية تأثير القرآن في سامعيه من المؤمنين والكافرين فإن الإجابة على ذلك هو في الفصل الثاني إن شاء الله.

ومن الآراء المعاصرة والجديرة بالبحث في هذا الجانب، ما ذهب إليه محمد فريد وجدي إلى أن الإعجاز البارز في القرآن الكريم هو الإعجاز الروحي (التأثيري)، وذلك لأن البلاغة ليست أكثر الوجوه سلطاناً على النفس؛ بل إن للبلاغة على الشعور الإنساني تسلطاً محدوداً لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال في الضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ توارده فيها.[٣] والحق أن للبلاغة القرآنية التأثير المباشر في الشعور الإنساني، وذلك أن البلاغة جاءت مخالفة لكل ما هو مألوف لدى الإنسان فكان لها السلطان العجيب والتسلط الكبير على النفس.

---

(١) المدثر: ١٨-٢٤.

(٢) قطب: **التصوير الفني في القرآن**، ص١٤.

(٣) انظر: محمد فريد وجدي، **دائرة معارف القرن العشرين**، الطبعة الثالثة، المجلد السابع، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧١، ص٦٧٧.

لكن شأن القرآن يختلف عن هذا، فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً، تجعل سامعيه وقارئيه يسمون به على كل شيء، وسر هذا التأثير أو علته هو أنه روح من أمر الله سبحانه وتعالى ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان**﴾[1] "فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها، وأما تأثير الكلام في الشعور، فلا يتعدى سلطانه حد أطرابها، والحصول على إعجابها".[2]

ويضيف قائلاً: "لا مشاحة في أن القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغة، وقادة الخطابة وسادات القوافي وملوك البيان... وهو حق ألزم كل غال الحجة، ودل كل باحث على المحجة ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهو هدى ورحمة ونور وشفاء لما في الصدور. كل هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور والعواطف والميول فتتحكم فيها تحكم الملك في ملكه ولكنه فوق ذلك كله (روح من أمر الله) تصل من روح الإنسان إلى حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان ولا سيالات الحكمة والعرفان، وتسري من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر، ولا يتخيله خيال شاعر".[3]

ويقرر بعد ذلك أن هذه الروحانية تسري إلى سريرة الإنسان وسويداء ضميره، وتستولي منها على أصل حياته ومهب عواطفه وإحساساته وأكبر برهان على ذلك ما فعلته بأولئك العرب الذين لبثوا ألوفاً من السنين على حالة واحدة حتى بدل القرآن أرواحهم وجمعهم على أمرواحد. فأي حجة أكبر من هذه الحجة على أن القرآن روح الهي وأمرسماوي وأي وجه من وجوه إعجازه بعد مشاهدته هذا الأثر الفخم أوقع في النفس، وانفى للشك وأولى بالقبول من وجه (روحانيته)؟[4].

---

(١) الشورى: ٥٢.

(٢) المرجع ذاته: ص٦٧٧.

(٣) المرجع ذاته: ص٦٧٨.

(٤) المرجع ذاته: ص ص٦٧٨-٦٧٩.

"إن هذه الروحانية وهذا التأثير يستوي فيه العارف باللغة والجاهل بها، وظهورها للعارف بيّن لا يحتاج إلى بيان أما ظهورها للجاهل بها من الأمم الأعجمية فبتأثيرها ونتيجتها. فللقرآن فوق بلاغته وعذوبته (روحانية) يدركها من لا حظّ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة. فإن الطفل والعامي يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو كان بغير صوت حسن. حتى إنهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن فيما لو أراد القارئ أن يغشهما.[1]"

وبعد هذا الشرح الموجز يتبين لي أن مفهوم الإعجاز التأثيري هو (ما يصنعه القرآن في القلب وما يؤثر به على النفس، وهو كذلك الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، وهو أيضاً تلك الروعة والرهبة التي جعلت سامعيه يتأثرون به ويستسلمون به، وهو كذلك روحانية تسري في النفس لها سلطان على القلب تسري مسرى الروح في الجسد).

المطلب الثاني: موضع إعجاز القرآن التأثيري في القرآن الكريم.

حدد القرآن في كثير من الآيات مواضع الإعجاز فيه، والمقصود من الإعجاز وقد بين العلماء في كثير من الأبحاث أن المقصود بالتحدي في آيات الإعجاز هو الإعجاز البياني، وهذا واضح من إشارات القرآن لذلك. وكما أشار القرآن إلى الإعجاز البياني وأنه في كل سور القرآن[2]، فإنه أشار إلى أن إعجاز القرآن التأثيري هو في كل القرآن الكريم وذلك بقوله تعالى ﴿**الله نزل أحسن الحديث، كتاباً، متشابهاً، مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء. ومن يضلل الله فما له**

---

(١) المرجع ذاته، ص٦٧٩.

(٢) يقول تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله**﴾ [البقرة-٢٣]. وفي هذا إشارة واضحة أن المقصود بالإعجاز هو الإعجاز البياني، وذلك من قوله تعالى: (من مثله) لأن المثلية المقصودة هي مثلية البيان والنظم، ولو أن المقصود غير ذلك لما أشار قوله تعالى في سورة هود بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴿**قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات**﴾ [هود: ١٣] وقد أشار الخطابي في بيان إعجاز القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: "وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها".

من هاد﴾[١] فقد دلت الآية على أن القرآن الكريم بجميع آياته له سلطان على النفس وتأثير في قلوب سامعيه، فمضمون هذه الآية أن القرآن يُلين قلوب الذين يخشون ربهم، لأن مضمون الآية السابقة يشير إلى قسوة قلوب الضالين ﴿**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله. أولئك في ضلال مبين**﴾[٢] فكانت الآية "الله نزل أحسن الحديث" مبينة أن قساوة قلوب الضالين من سماع القرآن إنما هي لرَيْنٍ في قلوبهم لا لنقصٍ في هدايته.[٣]

وإلى جانب ذلك فقد دلت الآية على هذا المعنى من عدة جوانب أهمها:[٤]

أولاً: اتصاف القرآن بصفات خمسة هي:[٥]

١- أنه أحسن الحديث. أي أحسن الخبر، والتعريف للجنس وقد سمي القرآن حديثاً في أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿**فبأي حديث بعده يؤمنون**﴾[٦].

٢- أنه كتاب، أي مجموع كلام مراد قراءته وتلاوته والاستفادة منه، مأمور بكتابته ليبقى حجة على مر الزمان، فإن جعل الكلام كتاباً يقتضي أهمية ذلك الكلام والعناية بتنسيقه والاهتمام بحفظه على حالته.

٣- أنه متشابه، أي متشابهة أجزاؤه متماثلة في فصاحة ألفاظها وشرف معانيها.

"فمعانيه متشابهة في صحتها وأحكامها وابتنائها على الحق والصدق، وألفاظه متماثلة في الشرف والفصاحة والإصابة للأغراض من المعاني بحيث تبلغ ألفاظه ومعانيه أقصى ما تحتمله أشرف لغة للبشر وهي اللغة العربية مفردات ونظماً، وبذلك كان معجزاً لكل بليغ عن أن يأتي بمثله، وفي هذا إشارة إلى أن جميع آيات القرآن بالغ الطرف الأعلى من البلاغة".

---

(١) الزمر: ٢٣.

(٢) الزمر: ٢٢.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٣/٣٨٣.

(٤) المرجع ذاته، جـ٢٣، ص ص ٣٨٤-٣٨٦ بتصرف.

(٥) المرجع ذاته، ج٢٣، ص ص٣٨٤-٣٨٦. بتصرف.

(٦) القرآن الكريم، الأعراف آية: ١٨٥.

٤- كونه مثاني، ومثاني: جمع مثنًى وهو اسم لجعل المعدود أزواجاً اثنين[١]، اثنين، فالقرآن مثاني لأنه مكرر الأغراض. وهذا يتضمن امتناناً على الأمة بأن أغراض كتابها مكررة فيه لتكون مقاصده أرسخ في نفوسها، وليسمعها من فاته سماع أمثالها من قبل.

"ويتضمن أيضاً تنبيهاً على ناحية من نواحي إعجازه، وهي عدم الملل من سماعه، وأنه كلما تكرر غرض من أغراضه زاده تكرره قبولاً وحلاوة في نفوس السامعين. فكأنه الوجه الحسن الذي قال في مثله أبو نواس:

يزيدك وجهه حُسناً إذا ما زدته نظراً"

٥- أنه تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم، وهذا الوصف مرتب على الوصف قبله وهو كون القرآن مثاني، أي مثنى الأغراض.

وهذا الوصف يشتمل على ثلاث جهات هي:[٢]

١- جلالة القرآن وروعته في قلوب سامعيه، وذلك لما في آياته الكثيرة من الموعظة التي تَوْجَل منها القلوب. وهو وصف كمال لأنه من آثار قوة تأثير كلامه في النفوس.

"وقد اقتضى قوله تعالى: ﴿**تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم**﴾[٣] أن القرآن يشتمل على معانٍ تقشعر منه الجلود وهي المعاني الموسومة بالخبرات التي تثير في النفوس روعة وجلالة ورهبة تبعث على امتثال السامعين له وعملهم بما يتلقونه من قوارع القرآن وزواجره" "ومعنى "تقشعر منه" تقشعر من سماعه وفهمه، فإن السماع والفهم يومئذ متقارنان لأن السامعين أهل اللسان".

---

(١) انظر: **المعجم الوسيط**، مادة ثنى، ج١، ص١٠١.

(٢) المرجع السابق، ج١٣/ ص ص٣٨٧-٣٩١ بتصرف.

(٣) الزمر: ٢٣.

"وهذه الروعة والجلالة جعلت كثيراً من الذين سمعوا القرآن لأول وهلة أن يدخلوا في الإسلام، بل إن الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه كما قال تعالى: ﴿**وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً**﴾[١].

٢- والجهة الأخرى هي لين القلوب عند المؤمنين عند سماعه عقب وجلها العارض من سماعه.

واللين هو ضد القساوة المقصودة في قوله تعالى: ﴿**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله**﴾[٢]. فالمؤمن إذا جمع آيات الوعيد خشي ربه وتجنب تحذيره، فتراه يقشعر جلده، وإذا سمع بعدها آيات البشارة تراه استبشر وفرح وعرض أعماله على تلك الآيات فرأى نفسه متحلية بالعمل الذي وعد الله عليه بالثواب فاطمأنت نفسه وانقلب الوجل والخوف رجاءً وترقباً، فذلك معنى لين القلوب.

٣- (وأعجب من ذلك كله أعجوبة جمعه بين التأثيرين المتضادين مرة بتأثير الرهبة، ومرة بتأثير الرغبة، ليكون المسلمون في معاملة ربهم جارين على ما يقتضيه جلاله وما يقتضيه حلمه ورحمته)[٣].

لقد كشفت لنا هذه الآية عن موضع التأثير في القرآن الكريم، وتبين لنا أن القرآن بكل آياته وسوره يحتوي على العنصر الذي يؤثر في سامعيه، ويستحوذ على المؤمنين والكافرين على حد سواء، "هكذا: "تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم" ... فهو التأثير الذي يلمس الوجدان، ويحرك المشاعر، ويفيض الدموع، يسمعه الذين تهيأوا للإيمان، فيسارعون إليه خاشعين، ويسمعه الذين يستكبرون عن الإذعان، فيقولون "إن هذا إلا سحر مبين" أو يقولون: "لا

(١) القرآن الكريم، الإسراء آية ٤٦.

(٢) الزمر: ٢٢.

(٣) انظر **التحرير والتنوير**، ج٢٣، ص ص٣٨٤-٣٩١.

تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون" فيقرون بالإعجاز الغلاب من حيث لا يشعرون، أو يشعرون!)[١].

فيقتضي بعد ذلك أن نقرر أن موضع الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم، هو القرآن كله، فأوله في النزول له ذلك التأثير، وآخره كذلك. وإلى جانب ذلك لا بد من الإشارة إلى أن الآيات التي نصت على وجوه الإعجاز الأخرى لها نفس التأثير الذي للآيات الأخرى، فآيات التشريع لها سلطان على النفس وروعة ومهابة في القلب، والآيات الكونية لها نفس التأثير الذي هو لآيات القرآن جميعها.

---

(١) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، ص١٦ بتصرف.

المبحث الثاني: علاقة إعجاز القرآن التأثيري بالإعجاز النفسي.

خلط كثير من الباحثين بين الإعجاز التأثيري وبين الإعجاز النفسي، وذلك من خلال التداخل الذي يحصل بينهما، أو من خلال ظن البعض منهم أن الإعجاز النفسي هو نفسه الإعجاز التأثيري، بل إن كثيراً من الباحثين لم يفرق بينهما وظن أن الإعجازين هما إعجاز واحد. لذلك سأحاول في هذا المبحث أن أقف على هذه الحقيقة وأسلط الضوء عليها محاولاً إزالة الظن والوهم الذي وقع فيه كثير من الباحثين.

وقد قسمت هذا المبحث إلى مطلبين وذلك حسب ما يقتضيه البحث وقد كانا على الشكل التالي:

المطلب الأول: حقيقة الإعجاز النفسي.

المطلب الثاني: علاقة الإعجاز النفسي بالإعجاز التأثيري.

المطلب الأول: حقيقة الإعجاز النفسي.

وقفت في الفصل التمهيدي عند الإعجاز النفسي، وتبين لي أنه جاء في القرآن جاء لتربية النوع البشري تربية تامة عامة كاملة شاملة، وأن الإعجاز النفسي "ما نلمحه في تلك الآيات وهي تتحدث عن أصناف الناس ومواقفهم ومشاعرهم، وما يفرحهم وما يحزنهم، ما نجده من بيان لمكنونات النفس وخفاياها، ودوافعها في أي القرآن الكريم قد يكون ذلك في القضية القرآنية، وقد يكون ذلك في الدنيا وقد يكون في الآخرة كذلك، فإنك لتقرأ الآية من القرآن الكريم؛ وإذ بها تصور نفسية أولئك الذين تتحدث عنهم صورة واضحة المعالم، بينة الإتجاه، لا تهمل جزئية، ولا تنسى مشهداً"[1].

ومما لا شك فيه أن علم النفس يُعد من العلوم التي تقدم فيها العلم الحديث، والتي كثر الحديث حولها في عصرنا هذا. ولم يكن السبق فيه لعلماء الغرب

---

(١) عباس، **اعجاز القرآن الكريم**، ص ص٣٤٤-٣٤٥.

فقد سبقهم العلماء المسلمون في الحديث عنه، إلا أن علماء الغرب قد استغلوا هذا السبق من خلال تقعيد نظرياتهم حول صفات النفس وأحوالها وأغراضها وخفاياها. وقاموا بدراسات منوعة في علم النفس التحليلي. ويُعد أشهر العلماء الغرب في هذا الجانب العالم الشهير "فرويد"، صاحب النظريات المشهورة في علم النفس، والذي يُعد مكتشف ما يُعرف بالعقل الباطن الذي نال إعجاب كثير من الباحثين. ويعتبر اكتشافه هذا اكتشافاً عظيماً، لولا وقوعه في خطأ جسيم هو تحليله الخاطئ للعقل الباطن، والذي خرج من خلاله بنظريته المعروفة بالتفسير الجنسي الشهواني لذلك العقل الباطن، ودعوته الناس إلى الاستسلام لرغبات وتوجهات العقل الباطن عندهم.(١)

والمتدبر في القرآن الكريم يرى أن القرآن قد نظر إلى الإنسان نظرة شاملة واعية؛ تعرف تكوينه وتحدد مفهومه ومقوماته. وهو بهذه النظرة قد استخدم كل مقومات علم النفس الإنساني منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، وقبل أن يتحدد مفهوم هذا العلم بمصطلحاته في العصر الحديث.(٢)

لذلك فإن القرآن قد سبق العلم الحديث في حديثه عن النفس الإنسانية، وعن مكنوناتها وصفاتها، وقد عالج القرآن النفس الإنسانية من جميع جوانبها، فقد تحدث القرآن عن النفس المؤمنة إلى جانب حديثه عن النفس الكافرة والمنافقة، كما تحدث عن أهل الكتاب ووصفهم ودخل في سرائرهم، وقد أبدع في وصفهم وحدد صفاتهم كما فعل مع اليهود والنصارى.*

والمتدبر في الآيات التي تتحدث عن النفس الإنسانية، يجد دقة متناهية في وصف النفس ويجد أن الحديث هو حديث عارف مطلع إلى جوهر النفس

(١) انظر: الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص٣٣٢.

(٢) انظر: أحمد جمال العمري، **مباحث في إعجاز القرآن**، الطبعة الأولى، دار المعارف، مصر، ص٦.

* هناك بحث بعنوان الإعجاز القرآني في وصف اليهود للدكتور أحمد الكبيسي ضمن بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني المنعقد في عام ١٩٩٠م بين فيه مقدار تغلغل القرآن في النفس اليهودية ومقدار الدقة التي برع فيها القرآن في وصف اليهود.

يصل إلى أعماقها وجوهرها. كيف لا والله تعالى يقول: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾[١].

والهدف من هذا الحديث يبرز من أن القرآن قد جاء مخاطباً النفس الإنسانية، فالقرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ليخاطب به الناس بجميع أصنافهم. وإذا كانت الغاية واضحةً من إنزال القرآن؛ وهي هداية الناس إلى الخير فإن الهدف يتضح لنا من خطاب القرآن للنفس أنه أراد منها إعداد الإنسان الصالح والنفس الصالحة. "لقد فهم القرآن النفس البشرية فهماً دقيقاً، وعاملها معاملة خاصة يهدف من ورائها إلى إعداد الإنسان الصالح، والإنسان المثالي، ولكي يصل إلى هذا الهدف الواضح السمات، أمسك بزمام النفس البشرية، فهو تارة يعدها ويمنيها ... وأخرى يخوفها ويرهبها، وفيما بين الوعد والوعيد، يغرس فيها كل البذور الصالحة التي يقصد إلى غرسها في قرارة النفس، ويرد الناس إلى خالقهم ويصلهم به مباشرة ولهذا قال: "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد"[٢].

من هذا يتضح أن هدف القرآن هو الإنسان، وأنه المقصود بالتربية وأن القرآن الكريم ينظر إليه على أنه أهم الأركان الثلاثة التي يقوم عليها هذا الوجود، لأنه هو العنصر الفعال والمؤثر المستفيد من خلال العنصرين الآخرين "الحياة والكون"* اللذان هما منفعلان ومتأثران بالدرجة الأولى في خدمة الإنسان.[٣] فالإنسان هو محور العمارة الكونية في هذه الحياة، مما جعل القرآن

---

(١) ق: ١٦.

(٢) المرجع ذاته، ص٤٦.

* يراد بالحياة هنا عمر الإنسان، وبالكون مجموع المخلوقات المسخرة للإنسان وفي ذلك انظر أساليب التشويق والتعزيز في القرآن لمؤلفه الحسين جرنو محمود جلو، ص١٣٣، نقلاً عن محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص ص٦٤-٩٢.

(٣) الحسين جرنو محمود جلو، **أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم**، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، دمشق، ١٩٩٤، ص١٣٣.

حين يخاطبه أن يتخذ عدة أساليب ووسائل في إقناعه، والتي تركزت على مخاطبة الحواس التي تمثلت في قوله تعالى: ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾[١].

ولقد اتخذ القرآن عدداً من الوسائل التربوية لتحقيق أهدافه الأساسية، ومن هذه الوسائل الوسائل العاطفية والتي تمثلت في التشويق، وذلك عن طريق تنويع وسائل الاقناع العقلي، ويصور هذا الجانب نظم القرآن وأسلوبه البياني، الذي يتسم بالسهولة واليسر لوضوح معانيه وعذوبة ألفاظه وقوة تأثيره في النفوس، مع بقائه عزيز المنال لسمو أسلوبه وإحكام سبكه ودقة تعابيره. ويتميز القرآن بنظمه من خلال انتقاله من موضوع إلى آخر، ومن أسلوب إلى أسلوب آخر دون أن يخل ذلك التنويع بوحدة السورة، وإنما يضفي عليها روحاً تأسر الألباب وتجعل القرآن وقعاً عظيماً وأثراً تربوياً بالغاً في النفوس وسر ذلك "أن له أسلوباً رائعاً ومزايا فريدة في تربية المرء". فالإقناع العقلي في القرآن الكريم مقترن بإثارة العواطف والانفعالات الإنسانية، فهو يربي العقل والعاطفة جميعاً، وهذا بارز في كثير من الآيات القرآنية من مثل حديث القرآن عن الثواب والعقاب الذي له أكبر الأثر في إرضاء النفس من الجانب العقلي وربما أبرز مثال ينطبق على هذا الأسلوب هو الحديث عن الجنة والنار والحديث عن صفات المؤمنين وصفات الكافرين.[٢]

بعد هذا كله يتضح أن الإعجاز النفسي يكمن في حديث القرآن عن النفس الإنسانية، سواء كان ذلك الحديث عن مكنونات النفس أو خفاياها أو الحديث عن أصناف الناس ومواقفهم ومشاعرهم وغير ذلك مما يتعلق بالنفس الإنسانية.

---

(١) النحل: ٧٨.

(٢) المرجع ذاته، ص١٥٦-١٦٩ بتصرف.

المطلب الثاني: علاقة الإعجاز النفسي بالإعجاز التأثيري

وقفت في المبحث الأول عند حقيقة الإعجاز التأثيري، وتبين من خلال حديث العلماء عن تأثير القرآن أن الإعجاز التأثيري هو ما يصنعه القرآن في القلب وما يؤثر به على النفس، وهو كذلك الروعة والهيبة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه إلى جانب أنه الروح التي تسري في النفس والروح التي لها سلطان على القلب والتي تسري في النفس مسرى الروح في الجسد.

وقد وقف بعض الباحثين عند الإعجاز النفسي والإعجاز التأثيري على أنهما إعجاز واحد وأن الإعجاز التأثيري هو وجه من وجوه الإعجاز النفسي والحق أن إمعان النظر في هذه المسألة يوضح لنا حقيقة انفصالهما عن بعضهما البعض، فالإعجاز التأثيري يكمن في تأثير القرآن على النفس الإنسانية، أما الإعجاز النفسي فيكمن في حديث القرآن عن النفس الإنسانية وأسرارها. والتأثير في النفس الإنسانية يختلف عن الحديث عن النفس الإنسانية.

فالإعجاز التأثيري أو تأثير القرآن في النفس الإنسانية لا يعد من الإعجاز النفسي بل هو إعجاز مستقل عن الإعجاز النفسي استقلالاً تاماً.[1] وإذا كان هناك التقاء بين الوجهين فهو من جهة التأثير، فقد عرفنا سابقاً أن هدف القرآن من خلال حديثه عن النفس الإنسانية هو التأثير على الفرد من خلال أساليبه ووسائله، وذلك من أجل إعداده حتى يكون مسلماً صالحاً، وكذلك إعجاز القرآن التأثيري الذي يكمن في كل آية من آيات القرآن فهو مؤثر، سواء كان ذلك من خلال حديثه عن النفس الإنسانية أو من خلال حديثه عن التشريع أو غيرها من المواضيع.

من هذا نستطيع أن نحدد العلاقة بين الوجهين وهي أن الإعجاز التأثيري أعم من الإعجاز النفسي، وهذا بارز من جهة أن آيات القرآن الكريم كلها مؤثرة،

---

(١) انظر: عباس، **إعجاز القرآن**، ص٣٤٤.

فالآيات التي تحدثت عن التشريع مؤثرة في النفس، وكذلك الآيات التي تحدثت عن الكون مؤثرة، كما هي الآيات التي تحدثت عن النفس الإنسانية. وقد أشار إلى ذلك كثير من العلماء من مثل سيد قطب إذ يقول: "بعض الباحثين في مزايا القرآن، ينظر إلى القرآن جملة ثم يجيب، وبعضهم يذكر غير النسق الفني للقرآن أسباباً أخرى يستمدها من موضوعاته بعد أن صار كاملاً: من تشريع دقيق صالح لكل زمان ومكان، ومن إخبارعن الغيب يتحقق بعد أعوام، ومن علوم كونية في خلق الكون والإنسان.

ولكن البحث على هذا النحو إنما يثبت المزية للقرآن مكتملاً. فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علوم؛ ولا تجمع بطبيعة الحال كل المزايا المتفرقة في القرآن؟ إن هذه السور القلائل قد سُحر العرب بها منذ اللحظة الأولى، وفي وقت لم يكن التشريع المحكم، ولا الأغراض الكبرى، هي التي تستدعي إحساسهم، وتستحق منهم الإعجاب"[1].

فالقرآن الكريم مؤثر قبل أن يبرز تشريع، أو حديث عن النفس الإنسانية وطبائعها وأسرارها، فالإعجاز التأثيري مختلف تماماً عن الإعجاز النفسي ويمكن تحديد ذلك بما يلي:

أولاً: ينحصر الإعجاز النفسي في الآيات التي تحدثت عن النفس الإنسانية، وهذا بعكس الإعجاز التأثيري، والذي يُعمم على جميع آيات القرآن الكريم.

ثانياً: الحديث عن الإعجاز النفسي يعد التوسع فيه حديثاً وذلك مع ظهور النظريات في علم النفس، وهذا بخلاف الإعجاز التأثيري والذي بدأ الحديث عنه مع بدايات الحديث عن الإعجاز القرآني.

---

(١) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، ص١٧.

المبحث الثالث: موقف العلماء من الإعجاز التأثيري.

بدأ العلماء البحث في إعجاز القرآن الكريم مع بدايات القرن الثالث الهجري، وأخذت بعد ذلك تتبلور الأفهام حول الإعجاز القرآني بشكل عام، وقد بدأت هذه الأفهام تنضج مع بدايات القرن الرابع الهجري، وأخذت الأبحاث تتركز حول وجه الإعجاز الأبرز وهو الإعجاز البياني والبلاغي، وإلى جانب ذلك بدأت بعض الإشارات إلى بعض الوجوه الأخرى من أوجه الإعجاز الأخرى؛ من مثل الإعجاز بإخبار الغيب والإعجاز التشريعي وغيرها من أوجه الإعجاز القرآني، ثم بدأت الأفهام والأبحاث تنضج في جميع أوجه الإعجاز، وإلى جانب ذلك ظهرت أوجه جديدة في علم الإعجاز، ومنها إعجاز القرآن التأثيري، فأين يقع إعجاز القرآن التأثيري من الإعجاز القرآني؟ ومتى بدأت الإشارة إليه؟ وما هو موقف العلماء منه؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه في هذا المبحث.

المطلب الأول: موقف العلماء السابقين من إعجاز القرآن التأثيري.

بدأ الحديث عن الإعجاز في بدايات القرن الثالث، وقد تفاوتت آراء العلماء بين مؤيد للإعجاز وبين منكر له، وظهر في هذا القرن القول بالصرفة[×] والذي نسب إلى "إبراهيم بن سيار النظام" المعتزلي مما حدا بتلميذه الجاحظ الرد عليه وإثبات الإعجاز البياني للقرآن الكريم في كتابه نظم القرآن الذي لم يصل إلينا.[(١)]

ومع بدايات القرن الرابع أخذ الإعجاز طابع التقعيد والتنظيم، وبدأ الحديث عن الإعجاز بشكل أوسع، وزاد عدد العلماء الذين يكتبون في الإعجاز القرآني.

× الإعجاز بالصرفة: هو صرف الله العرب عن أن يأتوا بمثل القرآن وإن كان مقدوراً لهم لأنهم كانوا بلغاء بطبيعتهم، انظر: عباس، **إعجاز القرآن**، ص٣٨.

(١) انظر: الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص١٠٥.

وقد اشتهر من العلماء في هذا العصر اثنان؛ وذلك لحجتهم القوية، وآرائهم المقنعة في الإعجاز، وهؤلاء العالمان هما:[١]

١- علي بن عيسى الرماني صاحب "النكت في إعجاز القرآن" والذي تحدث فيه عن الإعجاز القرآني والذي حصره بسبعة أوجه هي: "ترك المعارضة مع توفر الدواعي، وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والاخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة، والتي تمثلت في مجيء القرآن على وضع لم يألفه العرب من قبل، وقياسه بكل معجزة"[٢].

٢- أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي في كتابه "بيان إعجاز القرآن". وهنا توسع الخطابي في الإعجاز البياني أو البلاغي وبين أن القرآن صار معجزاً لأنه "جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني"[٣]. وقد ركز الخطابي على الجانب البياني وعده الوجه الأبرز في أوجه الإعجاز بل إن الإعجاز البياني هو المقصود وليس غيره، مثلما أجاب على القائلين بالإعجاز الغيبي ورد عليهم بقوله: "وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، ... ولا يشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال: ﴿**فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾[٤] من غير تعيين، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه"[٥] فالخطابي لا يرى أن أنواع الإعجاز الأخرى مقصودة في التحدي، الذي طلبته الآيات القرآنية، فهو يشير إلى أن الإعجاز يجب أن يكون عاماً في جميع السور، فإذا أردنا أن نقول أن هناك

---

(١) المرجع ذاته، ص١٠٦.

(٢) علي بن عيسى الرماني، **النكت في إعجاز القرآن**، منشور ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٧٥.

(٣) الخطابي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص٢٧.

(٤) البقرة: ٢٣.

(٥) المرجع ذاته: ص ص٢٣-٢٤ ،بتصرف.

إعجازاً ما، فإن ذلك يجب أن يكون عاماً في جميع السور القرآنية، لأن ذلك مقصد التحدي.

وقد ركز الخطابي على الإعجاز البياني والبلاغي في القرآن، وقد أبدع في ذلك، حتى أصبح مرجعاً للعلماء من بعده في تقسيم الكلام إلى بليغ رصين جزل، وفصيح قريب سهل، وجائز طلق رسل[١]، والتي توفرت في أسلوب القرآن وبلاغته. وبين أن الكلام لا يقوم إلا بلفظ حامل ومعنى به قائم، ورباط له ناظم. وقد جاءت هذه في القرآن في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه.[٢]

وقد توسع الخطابي في الحديث عن الإعجاز البياني، فنجده تارة يتحدث عن البلاغة وأقسامها، وتارة يضع الحجج والأدلة على صحة قوله، وتارة أخرى يرد على المشككين في وجهة نظره التي يتبناها إلى أن يصل إلى ختام كتابه، الذي أطلق فيه نوعاً جديداً من الإعجاز لم يسبقه أحد من العلماء بالقول فيه ألا وهو إعجاز القرآن التأثيري الذي قال عنه: "قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم. وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس. فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال. ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه. وتستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور. حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق[٣]، وتغشاها الخوف والفرق. تقشعر منه الجلود. وتنزعج له القلوب. يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من

---

(١) الرصين: المحكم الثابت، والجزل: هو القوي الفصيح، والرسل: الليّن. انظر: **المعجم الوسيط**، ج١، ص٣٥٠، وص١٢١وص٣٤٥.

(٢) المرجع ذاته: ص ٢٦-٢٧.

(٣) الوجيب من الوجب وهو الجبان والوجَبُ هو الخطر. انظر: **المعجم الوسيط**، ج٢، ص١٠٢٤.

القرآن. فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول. وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه. فصارت عداوتهم موالاة. وكفرهم إيماناً"[١].

إن قول الخطابي هذا يعد أول قول في الإعجاز التأثيري وتأثيره في النفوس، ولم يسبق أحد من العلماء الخطابي في هذا، وكل من جاء بعد الخطابي وتحدث عن تأثير القرآن فإنه قد انطلق من رأي الخطابي في هذا الباب.

وبعد ذلك جاء القرن الخامس والذي يعتبر العصر الذهبي لفكرة إعجاز القرآن، وقد برز في هذا العصر علماء كثيرون ممن تحدثوا في إعجاز القرآن، إلا أن أكثر هذه الآراء لم تخرج عن أقوال العلماء السابقين، إلا أنه اشتهر في هذا العصر عالمان جليلان، لهما نظرات ثاقبة نافذة، وإضافات نافعة، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعدهم من العلماء.[٢] وهما:

١- القاضي أبو بكر الباقلاني والذي ألف كتاباً في الإعجاز أسماه "إعجاز القرآن" والذي يعد أول مؤلف مستقل في الإعجاز ومقصوراً على علم الإعجاز.[٣]

يقرر الباقلاني في كتابه أن وجوه إعجاز القرآن محصورة في ثلاثة أوجه هي:[٤]

١- الاخبار عن الغيوب ويقصد بها الأخبار المستقبلية.

٢- حال النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أمياً، وقد جاء بأخبار الأمم السابقة، والتي لا سبيل إليها إلا عن تعلم، وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يقرأ، كما ثبت عنه أن ما تعلم عند أحد فدل ذلك على

---

(١) الخطابي، **بيان إعجاز القرآن**، ص٧٠.

(٢) انظر: الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص١٠٨.

(٣) عبد الكريم الخطيب، **الإعجاز في دراسات السابقين**، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٥، ص١٩٤.

(٤) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣)، **إعجاز القرآن**، شرح وتعليق، محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت ١٩٩١، ص٨٣-٨٦.

إعجاز القرآن أنه نزل على رجل أمي.

٣- أسلوب القرآن وبيانه الذي فاق كل كلام فهو بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه.

وبهذا نرى أن الباقلاني، لم يختلف عن خط سابقيه في الحديث عن أوجه الإعجاز؛ بل هو يعترف بأنه ليس مؤسس الآراء التي يقول بها في وجوه الإعجاز وذلك بقوله "ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك -يقصد وجوه إعجاز القرآن- ثلاثة أوجه"[١] وليس هو الذي كشف عن هذه الوجوه وأقام الشواهد لها، ونصب الأدلة إليها. بل هو مسبوق إلى هذه الآراء وهو يصرح بأنه إنما يحكي أقوال العلماء الذين سبقوه.[٢]

أما عن إعجاز القرآن التأثيري فإننا نرى أن الباقلاني لم يعده وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز القرآني والتي حصرها كما ذكرت في ثلاثة أوجه، إلا أنه ومن خلال حديثه عن الوجه الثالث من وجوه الإعجاز وهو نظم القرآن قد صرح به وجهاً مستقلاً فهو يقول: "وهو أن الكلام يبين فضله، ورجحان فصاحته، بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر، فتأخذه الأسماع وتتشوف إليه النفوس، ويرى وجه رونقه بادياً غامراً سائر ما يقرن به، كالدرة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد"[٣]. فهو يبين بكلامه هذا أن الكلمة القرآنية لها وقع خاص على النفس وشبه ذلك الوقع بالياقوتة في وسط عقد أو الجوهرة في وسط عقد من خرز وقد أشار إلى هذا المعنى في موضع آخر من كتابه حيث يقول: "وهو أنه سهل سبيله، فهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر وعن الصنعة المتكلفة وجعله قريباً إلى الأفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس"[٤]. ثم يقول

---

(١) المرجع ذاته، ص٨٣.

(٢) انظر: الخطيب، **الإعجاز في دراسات السابقين**، ص٢٠٤.

(٣) البلاقلاني، **إعجاز القرآن**، ص٩٤.

(٤) المرجع ذاته، ص٩٨.

في موضع آخر من الكتاب: "وإذا تأملت ما هديناك إليه، ووقفناك عليه، فانظر: هل ترى وقع هذا النور في قلبك، واشتماله على لُبِّك، وسريانه في حسِّك، ونفوذه في عروقك، وامتلاءك به ايقاناً، وإحاطة، واهتداءك به إيماناً وبصيرة؟ أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه، والهزة تعمل في جوانبك من لون، والأريحية تستولي عليك من باب؟ وهل تجد الطرب يستفزك لِلَطيف ما فطنت له، والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه؟"[١].

إن الباقلاني وهو يقول هذا الكلام يرجع تأثير القرآن في النفس الإنسانية إلى نظم القرآن وبلاغته، فلا يوجد كلام مثل القرآن الكريم له سلطان على النفس كما للقرآن، يقول الباقلاني: "هذا كله في تأمل الكلام ونظامه، وعجيب معانيه وأحكامه، فإن جئت إلى ما انبسط في العالم من بركته وأنواره، وتمكن من الآفات من يمنه وأضوائه، وثبت في القلوب من إكباره وإعظامه، وتقرر في النفوس من حتم أمره ونهيه، ومضى في الدماء من مفروض حكمه... وإلى أنه جعل عماد الصلاة التي هي تلو الإيمان في التأكيد، وثانية التوحيد في الوجوب... وفرض حفظه، ووكل الصغار والكبار بتلاوته، وأمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظيمه، من قوله: ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**﴾[٢]، لم يؤثر بالتعوذ لافتتاح أمر كما به لافتتاحه، فهل يدلك هذا على عظيم شأنه، وراجح ميزانه، وعالي مكانه؟ وجملة الأمر أن نقد الكلام شديد وتمييزه صعب"[٣].

هذا أبرز ما قاله الباقلاني عن تأثير القرآن في النفس، وإذا ما أردنا أن نعرف سبب تأثيره في النفس فإن الباقلاني قد دلنا على أن ذلك عائد إلى نظمه البديع، وتأليفه العجيب، وبلاغته المتناهية، فالقرآن مؤثر لهذه الأسباب وقد توسع الباقلاني في شرح بلاغة القرآن ونظمه مما جعله مبدعاً في هذا الجانب وجعل كثيراً من العلماء يقدمونه على غيره.

---

(١) المرجع ذاته، ص٢٤٣.

(٢) النحل: ٩٨.

(٣) البلاقلاني، **إعجاز القرآن**، ص ص٢٤٣-٢٤٤ بتصرف.

٢- ومن العلماء الذين برزوا أيضاً في ذلك العصر الامام أبو بكر عبد القاهر الجرجاني والذي يعد رائداً في علم البلاغة القرآنية والنظم القرآني. وقد قدم في كتابه "دلائل الإعجاز" نظرية فريدة في إعجاز القرآن هي نظرية "النظم القرآني" مما جعله رائداً في علم الإعجاز يرجع إليه العلماء ينهلون من نبع علمه.(١)

والحديث عن الجرجاني من قبل العلماء، هو من جانب نظريته الجديدة "نظرية النظم القرآني"، والتي سنفرد لها مبحثاً خاصاً في الفصل الثاني من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

ولقد هدف الجرجاني من نظريته "النظم القرآني" عدة أهداف أهمها:(٢)

١- الانتصار لقضية المعنى والنظم على قضية اللفظ.

٢- الانتصار لفكرة إعجاز القرآن، وإثباتها بنظريات وآراء قوية مقبولة، لا ضعيفة مردودة.

وقد نصت نظرية النظم عند الجرجاني على أن التحدي والإعجاز في النظم والتأليف، والنظم هو: توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلمات والجمل والفقرات، فالكلمات في الجملة لا يجمعها ويؤلف بينها إلا النحو.(٣) من مثل قوله تعالى: ﴿**وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيا**﴾(٤) ، وقوله تعالى: ﴿**وأنه هو أغنى وأقنى**﴾(٥) "المعنى هو الذي منه الإحياء والإماتة والإغناء والإقناء، وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى في نفسه فعلاً للشيء وأن

---

(١) انظر: الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص١١٠.

(٢) المرجع ذاته، ص ص١١١-١١٢.

(٣) انظر: المرجع ذاته، ص١١٣.

(٤) النجم: ٤٣، ٤٤.

(٥) النجم: ٤٨.

يخبر بأنه من شأنه أن يكون منه أو لا يكون إلا منه أو لا يكون منه"[١]، لذلك نجده يجيب عن سبب عجز العرب عن الاتيان بمثل القرآن بقوله: "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه، ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر، وصورة كل عظة، وتنبيه وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب... وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشراً عشراً، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكرشأنها، أو يرى أن غيرها أصلح مكاناً أو أشبه، أو أحرى وأخلق... بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور نظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخلدت معنى القروم فلم تملك أن تصول"[٢].

من كلام الجرجاني يتضح أن مفهومه لفكرة الإعجاز يعود إلى النظم "لذلك فهو يطلب من الباحث عن حقيقة الإعجاز أن يعمل عقله، وأن يكد فكره ليصل عن طريق ذلك إلى المزايا والخصائص التي امتاز بها نظم القرآن، ليقف عليها بنفسه من غير أن يقلد الآخرين"[٣].

وقد ضرب الجرجاني في كتابه أمثلة كثيرة على النظم القرآني بعد أن نفى أن يكون للفظ صفة الإعجاز، ومن ذلك قوله "أن القارئ إذا قرأ قوله تعالى: ﴿**واشتعل الرأس شيباً**﴾[٤] فإنه لا يجد الفصاحة التي يجدها إلا من بعد أن ينتهي الكلام إلى آخره، فلو كانت الفصاحة صفة للفظ ﴿**اشتعل**﴾ لكان ينبغي أن يحسها القارئ فيه حال نطقه به، ....."[٥].

---

(١) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص١١٢.

(٢) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص ٤٤ .بتصرف. والفروم من القرم أي الفحول، انظر: **المعجم الوسيط**، ج٢، ص٧٣٦.

(٣) أحمد جمال العمري، **مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري**، دار المعارف، مصر، ص١٧٢-١٧٣.

(٤) مريم: ٤.

(٥) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٢٦٢.

وإن أعظم مثال على النظم هو سورة الفاتحة فالحمد من قوله تعالى ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ مبتدأ، ولله خبر، ورب صفة لاسم الله تعالى ومضاف إلى العالمين، والعالمين مضاف إليه ،والرحمن الرحيم صفتان كالرب، ومالك من قوله ﴿مالك يوم الدين﴾ صفة أيضاً... فهل يتصور في شيء من هذه المعاني أن يكون معنى اللفظ؟ وهل يكون كون الحمد مبتدأ معنى لفظ الحمد؟ أم يكون كون رب صفة وكونه مضافاً إلى العالمين معنى الرب؟ فإن قيل: إنه إن لم تكن هذه المعاني معاني أنفس الألفاظ فإنها تعلم على كل حال من ترتيب الألفاظ ومن الإعراب، فالبرفع في الدال من الحمد يعلم أنه مبتدأ، وبالجر في الباء من رب يعلم أنه صفة، وعلى هذا قياس الكل: قيل ترتيب اللفظ لا يكو لفظاً والاعراب وإن كان يكون لفظاً فإنه لا يتصور أن يكون ههنا لفظاً من كلاهما علامة إعراب ثم يكون أحدهما تفسيراً للآخر.[١]

أما عن أوجه الإعجاز الأخرى فكما أشرنا فإن الجرجاني لم يشر إليها بل نجده قد رد كل قول بالإعجاز إلى نظرية النظم وأن الإعجاز ينطلق من نظم القرآن، وهو بذلك لم يتطرق إلى أوجه الإعجاز الأخرى في كتابه دلائل الإعجاز. وقد أصاب الجرجاني في ذلك فالنظم القرآني له علاقة وطيدة بأوجه الإعجاز الأخرى وخاصة الإعجاز البياني ولعله من السابق لأوانه الحديث عن علاقة النظم القرآني بإعجاز القرآن التأثيري؛ حيث أنني أفردت له مبحثاً خاصاً في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

وبعد هذه الوقفة مع أبرز علماء الإعجاز في عصوره الأولى فإننا نستطيع القول أن إعجاز القرآن التأثيري قد انطلق من منتصف القرن الرابع وتحديداً من الإمام الخطابي[٢]، ثم أصبحت هناك إشارات على الإعجاز التأثيري من قبل

---

(١) انظر: الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص ص٢٨٨-٢٨٩.

(٢) أشار الإمام الخطابي إلى أنه أول من قال بإعجاز القرآن التأثيري وذلك بقوله "قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه كثير من الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس". انظر: الخطابي، **بيان إعجاز القرآن**، ص٧٠.

بعض العلماء كما فعل الباقلاني، وأشارة إلى أن نظم القرآن هو أساس الإعجاز كما فعل الجرجاني، ولقد حاول بعض العلماء التوسع في مجال إعجاز القرآن التأثيري كما فعل الإمام السيوطي في الاتقان * إلا أنه لم يخرج عن قول الخطابي في ذلك وبقي الأمر هكذا حتى عصرنا هذا عندما تكلم فيه بعض العلماء المعاصرين وتوسعوا فيه من جوانب جديدة الأمر الذي جعلني أفرد له مطلباً خاصاً هو المطلب الثاني.

المطلب الثاني: موقف العلماء المعاصرين من إعجاز القرآن التأثيري.

لم تختلف نظرة العلماء المعاصرين عن سابقيهم في هذا الوجه من الإعجاز، ولم يتوسع كثير منهم في هذا الجانب، بل اكتفوا بالإشارة إليه، والتنبيه عليه بعبارات اقتبسوها من العلماء السابقين.

وهذا الأمر لا ينطبق على جميع العلماء، فقد ظهرت عدة آراء في هذا الباب لكثير من العلماء وخرجوا من خلالها بنظريات رائعة تستحق الوقوف عليها. ومن ذلك ما ذهب إليه سيد قطب في التصوير الفني في القرآن؛ حيث عزى تأثير القرآن الكريم إلى التصوير الفني في القرآن[1] الذي يعتبره المرحلة الثالثة لمراحل التذوق للجمال القرآني، فمراحل تذوق الجمال الفني في القرآن مرت بثلاث مراحل:[2]

١- مرحلة التذوق الفطري: وهي مرحلة تلقي العرب القرآن وتذوقهم بحاستهم الفنية جماله الفني الساحر. وفي هذه المرحلة كان الاحساس بالتأثير مباشراً على قلوبهم.

---

* عد السيوطي أوجه الإعجاز حتى وصلت إلى خمس وثلاثين وجهاً.

(١) التصوير الفني هو أداة القرآن المفضلة في أسلوبه، وهو تعبير القرآن بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية؛ وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الانساني، والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة. فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، ... انظر **التصوير الفني في القرآن**، ص٣٦.

(٢) صلاح عبد الفتاح الخالدي، **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**، الطبعة الثانية، دار المنارة، جدة، ١٩٨٩، ص ص١٩-٢٣.

٢- مرحلة إدراك مواضع الجمال المتفرقة: وهذه المرحلة جاءت بعد أن أقبل المفسرون على تفسير القرآن وتذوق جماله الفني. وفي هذه المرحلة كانت النظرة في الآية كوحدة منفصلة، يستخرجون منها مباحث في اللغة والأدب.

٣- مرحلة إدراك الخصائص العامة للجمال الفني القرآني: وهي المرحلة الأخيرة من مراحل التذوق، وقد جاءت متأخرة على يد سيد قطب؛ حيث أدرك الخصائص العامة للجمال الفني في القرآن، باكتشافه القاعدة العامة والطريقة الموحدة في التعبير القرآني، وهي (نظرية التصوير الفني).

وقد عبر سيد قطب عن التصوير الفني بعدة مصطلحات، وقد أثارت هذه المصطلحات بعض الاعتراضات عليه، فبعض الناس لم يستسغ إطلاقها على التعبير القرآني، وذلك لأن بعض هذه الألفاظ ينطلق إلى أكثر من معنى، وقد يتبادر إلى ذهن القارىء معنى غير المقصود الذي عناه سيد. إلا أنه كان يستخدم هذه المصطلحات لمعنى في ذهنه محدد وكان يقصد معانيها الجيدة اللائقة بكتاب الله.[١]

وهذه المصطلحات هي: الصورة والتصوير، الفن، النقد، السحر، التناسق، الجرس، الايقاع، الموسيقى، الظل، والتجسيم.[٢] وقد كان سيد يقصد بكل مصطلح معنى فنياً يليق بكتاب الله سبحانه وتعالى.

وإذا أمعنا النظر في هذه المصطلحات فإننا نجد أن هذه أدوات التصوير الفني في القرآن. فتعبير القرآن بالصورة وتجسيم المشهد أو المنظر هو

(١) الخالدي، **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**، ص٨٦.

(٢) المرجع ذاته، ص ص٨٦-١١٦. الفن هو حسن السبك وجمال الأسلوب وقوة العاطفة، والنقد هو تقويم العمل الأدبي من الناحية الفنية، والسحر هو جاذبية القرآن وروعته ولطف مدخله، والتناسق هو التنسيق في تأليف العبارات بتخيير الألفاظ، والجرس هو صوت الكلمات المنغم فهو صوتها ونغمتها وإيقاعها والايقاع هو إيقاع اللحن وتبيينها حتى تنبعث من الفم نغمة خاصة هي الإيقاع الموسيقي والموسيقى هي أن تكتسب العبارات جرساً موسيقياً زيادة على ما كان لها من موسيقى فردية والظل هو ما وراء الشعور من الذكريات والصور التي صاحبتها في تاريخها الشخصي والإنساني والتجسيم هو أن يتخيل الأديب الفنان للأمر المعنوي صورة معينة يرسمها في ذهنه.

تصوير فني، والفن الذي هو جمال العرض القرآني وتنسيق الأداء وبراعة الإخراج هو تصوير أيضاً. فالقرآن لم يغفل ما للفن من تأثير في النفوس، لذلك استخدمه أداة مقصودة للتأثير الوجداني[١] وكذلك جميع المصطلحات الأخرى هي أدوات للتصوير الفني، وكل هذه الأدوات تكون التصوير الفني الذي هو يعد منبع التأثير للقرآن في النفس والوجدان.

وبعيداً عن نظرية التصوير والغوص فيها فإننا نرى أن سيد قطب كان يقصد في كتابه التصوير الفني في القرآن الإعجاز القرآني، وبالذات الإعجاز البياني والذي كان قد أشار إليه ببعض المصطلحات مثل سحر القرآن، والتصوير في القرآن.[٢]

وقد اتضح أن إعجاز القرآن الفني هو لون من ألوان إعجاز القرآن البياني فإعجاز القرآن يتمثل في بيانه وتعبيره، ويتمثل في طريقة التصوير الفني التي عرض بها موضوعاته، والتي من أجلها كان له سحره الخاص، وتأثيره الخاص وجاذبيته الخاصة، التي تساوى في الإقرار بها، المؤمنون والكافرون على السواء في القديم والحديث.[٣]

ونظرة سيد في الإعجاز نظرة جديدة تختلف عن السابقين فهو يذهب إلى معرفة منبع السحر القرآني أو موطن الإعجاز في القرآن. وقد بحث عن هذا المنبع "قبل التشريع المحكم، وقبل النبوءة الغيبية، وقبل العلوم الكونية وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة تشمل هذا كله. فقليل القرآن الذي كان في أيام الدعوة الأولى كان مجرداً من هذه الأشياء التي جاءت فيما بعد، وكان -مع ذلك- محتوياً على هذا النبع الأصيل الذي تذوقه العرب، فقالوا: إن هذا إلا سحر يؤثر".[٤]

---

(١) المرجع ذاته، ص٩٦.

(٢) المرجع ذاته، ص٢٩٩.

(٣) المرجع ذاته، ص٢٩٩.

(٤) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، ص١٨.

فإعجاز القرآن في رأي سيد هو إعجاز بياني فني والإعجاز القرآني يكمن في نظرية التصوير الفني واستخدام القرآن التصوير كطريقة للتعبير عن شتى الأغراض.[١]

وقد تحدث سيد في أكثر من موضع من كتابه في ظلال القرآن عن الإعجاز القرآني وبالذات عن إعجاز القرآن التأثيري أو سحر القرآن كما أشار إليه، إلى جانب حديثه عن التصوير الفني في كتابه التصوير الفني في القرآن.

ومن إشارات سيد قطب على إعجاز القرآن التأثيري ما قاله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**الم. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون**﴾[٢]، "إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن؛ وتسمى بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام. وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزايل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن، كلما تفتح القلب، وصفى الحس، وارتفع الادارك، وارتفعت حساسية التلقي والاستجابة. وإن هذه الظاهرة لتزداد كلما اتسعت ثقافة الإنسان، ومعرفته بهذا الكون وما فيه ومن فيه. فليست هي مجرد وصلة تأثيرية وجدانية غامضة فهي متحققة حين يخاطب القرآن الفطرة خطاباً مباشراً. وهي متحققة كذلك حين يخاطب القلب المجرب، والعقل المثقف، والذهن الحافل بالعلم والمعلومات. وإن نصوصه ليتسع مدى مدلولاتها ومفهوماتها وإيقاعاتها على السواء كلما ارتفعت درجة العلم والثقافة والمعرفة"[٣].

---

(١) الخالدي، **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**، ص ص٣٠١-٣٠٢.

(٢) السجدة: ١-٣.

(٣) سيد قطب، **في ظلال القرآن الكريم**، الطبعة الخامسة عشرة، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٨، ج٥، ص٢٨٠٥.

فالقرآن له سر خاص معجز، ويصل هذا السر حتى يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً أو على العوام الذين لا يطرق عقولهم منه شيء.[١]

إن نظرية التصوير الفني تعد ابداعاً جديداً في مجال إعجاز القرآن الكريم، وقد بين صاحبها منبع تأثير القرآن على النفس الإنسانية، وتميز القرآن بالتصوير الفني جعله يدخل إلى أعماق النفوس لمجرد سماعه بفطرة سليمة وقلب مفتوح.

والتصوير الفني هو أداة القرآن المفضلة -كما قال سيد قطب-[٢] في أسلوب القرآن، وهذه الأداة هي أداة من أدوات الإعجاز البياني الذي تحدى به العرب بأن يأتوا بمثله لذلك سأحاول أن أتعرض لهذا الموضوع بتوسع أكثر في الفصل الثاني من هذه الدراسة عند دراستنا لموضوع النظم القرآني وأثره في إعجاز القرآن التأثيري.

وإذا ما حاولنا الانتقال إلى علماء معاصرين آخرين فإننا نجدهم لا يخرجون عن دائرة الإعجاز البياني والبلاغي عند حديثهم عن إعجاز القرآن التأثيري. إلا أنه يوجد بعض اللفتات التي تستحق الوقوف عليها ومن ذلك ما ذهب إليه محمد فريد وجدي*. وقد تعرضت له في مباحث سابقة. وما ذهب إليه محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم وبنت الشاطئ والرافعي وغيرهم من العلماء.[٣]

---

(١) انظر: الخالدي، **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**، ص٣٠٤، وانظر محمد فريد وجدي، **دائرة معارف القرن العشرين**، ج٧، ص٦٧٩.

(٢) قطب، **التصوير الفني**، ص٣٦.

* انظر: كلام محمد فريد وجدي، **في موسوعة القرن العشرين**، ج٧/ص٦٧٧.

(٣) محمد سعيد رمضان البوطي، **من روائع القرآن: تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل**، مكتبة الفارابي، دمشق، ص١١١ وما بعدها بتصرف.

المبحث الرابع: إشارة القرآن إلى إعجاز القرآن التأثيري.

أشار القرآن الكريم إلى إعجاز القرآن التأثيري إشارات كثيرة، فقد جاء من الآيات ما يدل على هذا الوجه من الإعجاز، آيات تدل دلالة صريحة على أثر القرآن وتأثيره، بالاضافة إلى آيات تضمنت هذا المعنى بالدلالة الضمنية.

ومن خلال استقراء بعض الآيات فإني قد وجدت أنه يقتضي بقسم هذا المبحث إلى مطلبين هما:

المطلب الأول: الآيات القرآنية التي أشارت إلي إعجار القرآن التأثيري.

المطلب الثاني: الرقية بالقرآن وعلاقتها بإعجاز القرآن التأثيري.

المطلب الأول: الآيات القرآنية التي أشارت إلى إعجاز القرآن التأثيري.

جاءت الآيات في إشارة واضحة لتأثير القرآن الكريم في نفوس مستمعيه، وقد وردت في عدة صور وصفات، فنجدها تارة تصف لنا القرآن الكريم وتأثيره على المستمعين، وتارة تحث المؤمنين على الإنصات للقرآن وزيادة الإيمان عن طريق تلاوة الآيات القرآنية.

وحثت على الإستماع للقرآن والإنصات إليه، وهذا من شأنه أن يجعل المستمع أو القارىء لكتاب الله سبحانه وتعالى أن يدّبر آياته ويتعظ بها ومن شأن هذا التدبرأن يريح النفس الإنسانية فيكون القرآن الكريم شفاءاً لما في الصدور وهدى ورحمةً للمؤمنين.

وهذه الآيات تتضمن المعاني التالية:

أولاً: الحث على الإستماع والإنصات للقرآن الكريم

وقد دل على هذا المعنى قولة تعالى: ﴿**وإذا قُرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون**﴾[١] والإنصات للقرآن عند تلاوته هو إعظام واحترام له[٢] والأمر بالإستماع له جاء حتى يتفهموا آياته ويعتبروا بمواعظه، كما أن الأمر بالإنصات له جاء حتى يعقلوا آياته ويتدبروها.[٣]

ومهما اختلف الحال الذي أمرالله بالإستماع لقارىء القرآن إذا قُرىء والإنصات له، فإن الإستماع والإنصات للقرآن يؤديان إلى فهمه وتدبره والإعتبار به "فالإستماع إلى هذا القرآن والإنصات له -حيثما قرىء- هو الأليق بجلال هذا القول، وبجلال قائله سبحانه."[٤]

وإن الآية الواحدة لتصنع أحياناً في النفس - حين تستمع لها وتنصت- أعاجيب من الإنفعال والتأثر والإستجابة والتكيف والرؤية والإدراك، والطمأنينة والراحة، والنقلة البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة، مما لا يدركه "إلامن ذاقه وعرفه."[٥]

"وإن العكوف على هذا القرآن - في وعي وتدبر لا مجرد التلاوة والترنم!- لينشىء في القلب والعقل من الرؤية الواضحه البعيدة المدى ومن المعرفة المطمئنة المتيقنة؛ ومن الحرارة والحيوية والإنطلاق!... مالا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة او تجريب[٦]".

---

(١) الأعراف: ٢٠٤.

(٢) ابو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٤، ج٢ ص٢٩١

(٣) ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٦ ص١٦١

(٤) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٣ ص١٤٢٥

(٥) المرجع ذاته، ج٣، ص١٤٢٥-١٤٢٦.

(٦) المرجع ذاته، ج٣ ص١٤٢٦. بتصرف

فالأمر بالإستماع للقرآن والإنصات له جاء مقصوداً وجاء دالاً على غاية سامية. هي أن يدخل هذا القرآن إلى قلب وعقل المستمع أو القارىء .

"والإستماع أبلغ من السمع لأنه إنما يكون بقصد ونية وتوجيه الحاسة الى الكلام لإدراكه، والسمع ما يحصل ولو بغيرقصد، والإنصات السكوت لأجل الإستماع حتى لا يكون شاغلا عن الإحاطة بكل ما يقرأ فمن استمع وأنصت كان جديراً بأن يفهم ويتدبر "[1]

لذلك نجد المشركين يحثون بعضهم على عدم الإستماع للقرآن الكريم خشية أن يقع ذلك في نفوسهم فيؤدي ذلك إلى إيمانهم ودل على ذلك معنى قوله تعالى ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[2] "فإنهم علموا أن القرآن كلام هو أكمل الكلام شريف معانٍ وبلاغةَ تراكيب وفصاحة الفاظ، وأيقنوا أن كل من يسمعه وتُداخل نفسه جزالة ألفاظه وسُمُوُّ أغراضه قضى له فهمه أنه حقٌ إتباعُه، وقد أدركوا ذلك بأنفسهم ولكنهم غالبتهم محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا ودبروا تدابيراً لمنع الناس من استماعه، وذلك خشية من أن ترقّ قلوبهم عند سماع القرآن فصرفوهم عن استماعه[3].

ثانياً: الحث على تدبر القرآن الكريم والتذكر في آياته.

وقد دل على هذا المعنى آيات عديدة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مباركٌ ليدّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾[4] والتدبر هو التفكر، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهر الآيات من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة لإن من اقتنع بظاهر المتلوّ، لم يحل منه. بكثير طائل

---

(١) محمد رشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)** دار المعرفة، بيروت ج٩، ص٥٥٢

(٢) فصلت: ٢٦

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٤، ص٢٢٧

(٤) ص: ٢٩.

"اي لم يستفد منه كبير فائدة"[١] "والتدبريكون في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي اودعت فيه. بحيث كلما ازداد المتدبر تدبراً انكشفت له معاني لم تكن بادية له بادىء النظر[٢]".

وقد ذم الله سبحانه وتعالى من لا يتدبر القرآن فقال سبحانه وتعالى: **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾**[٣] فعدم تدبرهم للقرآن الكريم تسجيل عليهم "بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل اليها ذكر"[٤] فقلوبهم "مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه"[٥] فهذا كله بسبب عدم تدبرهم للقرآن الكريم.

ثالثاً: الحث على الإستشفاء والهداية من القرآن الكريم

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة من مثل قوله تعالى: **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾**[٦] فهو يذهب ما في القلوب من أمراض الشك والنفاق، وهذا لا يكون إلا لمن آمن به، فإنه عندها يكون شفاءاً له[٧] وبمثل ذلك قال الإمام الطبري فالقرآن يستشفى به من الجهل من الضلالة، ويُبْصر به من العمى للمؤمنين ورحمة لهم دون الكافرين[٨] فالقرآن "شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة. فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن... وفي القرآن شفاء من الإتجاهات المختلفة في الشعور والتفكير... وفي القرآن شفاء من العلل الإجتماعية التي تخلخل

---

(١) محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار الكتاب العربي، ج٤، ص٩٠.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٣، ص٢٢٥.

(٣) محمد: ٢٤.

(٤) الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص٣٢٦.

(٥) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص١٩٣.

(٦) الإسراء: ٨٢.

(٧) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٣، ص٦٣.

(٨) انظر الطبري، **جامع البيان**، ج٨ ص١٣٩.

بناء الجماعات".[١] وإذا كانت هذه الآية قد دلت على إستشفاء المؤمنين من القرآن الكريم فإن قوله تعالى "**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين**﴾[٢] يدل على عموم الإستشفاء من القرآن؛ فبه يستشفي المؤمن والمشرك على عموم الخطاب بقوله تعالى ﴿**يا أيها الناس**﴾. فالخطاب إلى"جميع الناس لما في القرآن من المنافع الصالحة، والإشارة إلى اختلافهم في مقدار الإنتفاع به"[٣].

رابعاً: الحث على زيادة الإيمان من خلال قراءة القرآن الكريم.

وهذا المعنى دل عليه عموم قوله تعالى﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون**"[٤] "وقد اقتضى ظاهر القصر المستفاد من ﴿إنما﴾ أن من لم يَجلْ قلبُه إذا ذكر الله، ولم تزده تلاوة آيات الله إيماناً مع إيمانه، ولم يتوكل على الله...لم يكن موصوفاً بصفة الإيمان"[٥] فالتعبيرالقرآني دقيق في بنائه اللفظي ففي قصر اللفظ بإنما لا يوجد مبرر لتأويله يقول الإمام الطبري: "ليس المؤمن بالذي يخالف الله ورسوله، ويترك اتباع ما أنزل إليه في كتابه من حدوده وفرائضه، والانقياد لحكمه، ولكن المؤمن هو الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، وانقاد لأمره... واذا قرئت عليه آيات كتابه صدّق بها، وأيقن أنها من عند الله فازداد بتصديقه بذلك، إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك، تصديقاً. وذلك هو زيادة ما تأتي عليهم من آيات الله إياهم إيماناً"[٦] فالآية أعطت صفاتٍ للمؤمنين في حال ذكر الله وتلاوة آياته، وهذه الصفات هي الوجل وهو استشعار الخوف، اي ما يجعل القلب يشعر به بالفعل. والذكر المراد هو ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله او

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٤، ص٢٢٤٨ بتصرف

(٢) يونس: ٥٧.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١١ ص٢٠٠

(٤) الأنفال: ٢.

(٥) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٩، ص٢٥٥ بتصرف.

(٦) الطبري، **جامع البيان**، ج٦ من ص ١٧٧-١٧٨

وعيده ووعده، ومحاسبته لخلقه وإدانتهم، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيل القرآن بالتدبرفإذا استشعر المؤمن معاني هذه الآيات من خلال ذكره لعظمة الله وكبريائه ومن خلال تلاوة آيات الله فإن ذلك يجعله يشعر بالوجل[١].

وصفة ثانيه تقررها الآية هي صفة الزيادة في الإيمان أي الزيادة في اليقين في الإذعان وقوة في الإطمئنان، وسعة في العرفان. وصفة أخرى قررتها الآية هي صفة التوكل على الله وحده فلا يفوضون أمورهم إلى سواه عز وجل[٢].

خامساً: إشارة القرآن الكريم إلى تأثير القرآن في المؤمنين

وهذا المعنى دلت عليه الآيات السابقة، والتي وقفنا مع بعض معانيها. إلا أن هناك آيتان دلتا على المعنى اكثر صراحة في تأثير القرآن على المستمعين وهما:

١- قوله تعالى ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾[٣] وقد وضح لنا أن المثاني هي ترديد القول وتكرير الأغراض وأن معنى "متشابهاً" متماثلاً في فصاحة ألفاظه وشرف معانيه.

إلا أن الزيادة في تدبر هذه الآية يعطينا دلالات أخرى منها هل القرآن أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه؟

يقول الإمام الرازي" أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين

الأول : أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة.

الثاني: أن يكون بحسب النظم في الأسلوب." ويضيف قائلاً "أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى وفيه وجوه : الأول أنه كتاب منزه عن

---

(١) انظر محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج٩ من ص٥٨٩-٥٩٠.

(٢) المرجع ذاته من ص٥٩٠-٥٩٢ بتصرف.

(٣) الزمر: ٢٣.

التناقض والوجه الثاني اشتماله على الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل والوجه الثالث أن العلوم الموجوده فيه كثيرة جداً".[١]

والمعنى الذي يُستنبط من هذه الآية كما يقرره الإمام الزمخشري "أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة"[٢]

٢- قوله تعالى: **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله. وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾**[٣] فالله سبحانه وتعالى يقرر أن لو أنزل هذا القرآن على جبل، وهو حجر، لكان هذا الجبل متذللاً، متصدعاً من خشية الله على قساوته، حذراً من أن لا يؤدي حق الله المفترض عليه في تعظيم القرآن[٤] والغرض من هذا المثل هو " توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره"[٥] فينبغي أن تخشع للقرآن القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الإكيد[٦]

فالقرآن الكريم من عظمته لو أن الله سبحانه وتعالى أنزله على جبل "وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثراً ناشئاً من خشية الله؛ خشية تؤثرها فيه معاني القرآن"[٧] وذلك لإن للقرآن "ثقلاً وسلطاناً وأثراً مزلزلاً لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته... واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني

---

(١) محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر، **التفسير الكبير**، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١، ج١٣ ،ص٢٨٦ بتصرف

(٢) الزمخشري، **الكشاف**، ج٤ ص١٢٤

(٣) الحشر: ٢١

(٤) انظر الطبري، **جامع البيان**، ج١٢، ص٥١

(٥) الزمخشري، **الكشاف**،ج٤ ص٥٠٩

(٦) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص٣٦٦

(٧) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٨ ص١١٦

متفتحاً لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازاً ويرتجف إرتجافاً. ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعلَ المغنطيس والكهرباء بالأجسام. أو أشد... والذين أحسوا شيئاً من مس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقاً لا يُعبرُ عنه إلا هذا النص القرآني المشع الموحي.[١]

هذا إجمال مبسط عن بعض إشارات القرآن الكريم لتأثيره في نفوس سامعيه، وقد بينت هذه الآيات مقدار الأثر الذي يصنعه القرآن في القلوب والعقول. فالمرء لا يحتاج إلا إلى ذهنٍ صافٍ وقلب خاشعٍ وآيات قرآنيه تتلى عليه لتنقله إلى عالم الإيمان والهداية.

ولم يقتصر تأثير القرآن على الإنسان فقد بينت آيات عديدة أثر هذا القرآن على الجن كما في قوله تعالى: ﴿**قلْ أوحي اليَّ أنه استمع نفرٌ من الجنّ فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً. يهدي إلى الرشد فآمنا به. ولن نشرك بربنا أحداً**﴾[٢] فالقرآن الكريم ينبئ عن "وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن؛ مفاجأة أطارت تماسكهم، وزلزلت قلوبهم، وهزت مشاعرهم، واطلقت في كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلأ بها كيانهم كله وفاض، فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعاً، ولا تملك عليه صبراً"[٣] فأول ما بهرهم منه أنه عجب غير مألوف، وأنه يثير الدهش في القلوب، وهذه صفةالقرآن عند من يتلقاه بحس واعٍ وقلب مفتوح، ومشاعر مرهفة، وذوق ذواق... ذو سلطان متسلط، وذو جاذبية غلابة، وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب.. يدل على أولئك النفر من الجن كانوا حقيقة يتذوقون"[٤] وهذا ما جعلهم عندما رجعوا الى قومهم أن يدعوهم إلى الإيمان به ﴿**يا قومنا أجيبوا داعي الله و آمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم**[٥]﴾.

---

(١) قطب، **في ظلال القرآن**. ج٦ ص ٣٥٣٢، بتصرف.

(٢) الجن: ١-٢

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٧٢٦.

(٤) المرجع ذاته ج٦ ص٣٧٢٧

(٥) الأحقاف: ٣١

فالقرآن الكريم إذا تلقته الأذان بقلوب خاشعة وإنصات سليم، كفيل بأن يهز هذه المشاعرولو كانت قاسية كالجبل وينقلها الى عالم رحب واسع هو عالم الإيمان به.

أما عن الآيات التي تدل على تأثير القرآن ضمنياً فهي كثيرة فآيات القرآن كلها مؤثرة وكذلك جاء من الآيات التي تتضمن هذا المعنى التأثيري من مثل قوله تعالى: ﴿**أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية أدم وممن حملنا مع نوح من ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً**﴾[١] ومنها قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[٢] وغيرها من الآيات.

المطلب الثاني: الرقية بالقرآن وعلاقتها بإعجاز القرآن التأثيري:*

جاء في معنى الرقية:"رقى المريض ونحوه رقْياً ورُقيا ورُقية: عوّذه. ويقال: باسم الله أرقيك والله يشفيك"[٣]

وقد أجاز الشارع الحنيف الرقية بالقرآن الكريم و الكلام المأثور. والرقية التي كانت قبل الإسلام ما لم يكن فيها شرك. وقد جاء في ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي وراه مسلم عن عوف بن مالك قال: "كنا نرْقي

---

(١) مريم: ٥٨.

(٢) الرعد: ٢٨.

* أجاز العلماء الرقى مستدلين بكثير من الآثار الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم من مثل ما روي عن جابر قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرقى فجاء آلُ عمرو بن حزم فقالوا يا رسول الله إنها كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب وإنك نهيت عن الرقى. قال فعرضوها عليه فقال ما أرى بأساً فمن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل" الحديث رواه مسلم برقم ٢١٩٩، ففي هذا الحديث دليل على جواز الرقى والتطبب بما لا ضرر فيه ولا مانع من جهة الشرع وإن كان بغير أسماء الله وكلامه لكن إذا كان مفهوماً، لأن ما لا يفهم لا يؤمن أن يكون فيه شيء من الشرك."وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي أو بما لا يعرف معناه من غيره، وأن يُعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بذات الله تعالى". انظر [ابن حجر، **فتح الباري**، ج١٠ ص٢٠٦ وانظر، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، شرح منتقى الأخبار**، دار القلم، بيروت، ج٨ ص٢١٤].

(٣) مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، اخرجه إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة العلمية طهران، ج١، ص٣٦٨

في الجاهلية فقلنا يا رسول الله كيف ترى في ذلك فقال: اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك"[١]

وقد وردت أثار كثيرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الرقى بالقرآن الكريم من ذلك ما رواه الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفث على نفسه -في المرض الذي مات فيه- بالمعوذات ، فلما ثقل كنت أنفث عليه بهنّ، وامسح بيده نفسه لبركتها"[٢] وروى البخاري عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه "ان ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أتوا على حيّ من احياء العرب فلم يقروهم، فبينما هم كذلك إذ لُدغ سيد اولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً. فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه ويتنفل، فبرأ، فأتوا بالشاء، فقالوا لا تأخذه حتى نسأل النبي صلى الله عليه وسلم، فسألوه فضحك وقال: وما أدراك أنها رقية؟ خذوها، واضربوا لي بسهم"[٣] فهذه الأثار وغيرها من الروايات التي جاءت لتدل على جواز الرقية بالقرآن الكريم تعطينا معنى ذا دلالة واضحة هو ذلك المعنى الذي قال الله تعالى عنه ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً**﴾[٤] وإن كان العلماء قد حصروا معنى الشفاء في الشفاء من الجهل أو مرض القلوب إلا أن عموم اللفظ يعطي معنى عاماً يحتمله النص وقد وردت أثار عن الرسول صلى الله عليه وسلم تجيز الرقية بالقرآن الكريم من بعض الأمراض.

---

(١) رواه مسلم، **انظر صحيح مسلم بشرح النووي** ج١٤، ص١٨٧ حديث رقم ٢٢٠٠.

(٢) أخرجه البخاري انظراحمد بن حجر العسقلاني (٧٧٣هـ) **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، الطبعة الثانيه، دار الريان للتراث، القاهره، ١٩٨٨، ج١٠، ص ٢٠٥ حديث رقم ٥٧٣٥

(٣) المرجع ذاته ج١٠ ص٢٠٨ حديث رقم ٥٧٣٦

(٤) الإسراء: آية ٨٢

إلا ان الرقية في الغالب تكون لمرض قلبي وتوتر نفسي يعيشه الإنسان فيحتاج ذلك الإنسان إلى مهدىء لأعصابه، وشيء يخرجه من حالة التوتر إلى حالة الإرتياح والهدوء، هذه الحالة لا يعالجها شيء مثل القرآن الكريم، إذ به تهدأ النفوس وتخشع القلوب وتنار العقول فتصل إلى مرحلة الهدوء النفسي.

وسبب الشفاء بالقرآن الكريم أو علة ذلك واضحة وهي "أن القرآن روح من أمر الله تعالى ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب وما الإيمان**﴾[1] فهو يؤثر بهذا الإعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها.[2]

---

(١) الشورى: آية: ٥٢

(٢) وجدي، **دائرة معارف القرن العشرين**، ج٧ ص٦٧٧

الفصل الثاني

مكمن الإعجاز التأثيري في القرآن

سأحاول في هذا المبحث أن أتعرض إلى مكمن إعجاز القرآن التأثيري، وذلك من خلال تقسيم هذا الفصل إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: النظم القرآني وأثره في إعجاز القرآن

المبحث الثاني: الايقاع الموسيقي وعلاقته بإعجاز القرآن التأثيري

المبحث الثالث: الأداء وعلاقته بإعجاز القرآن التأثيري

المبحث الرابع: المعنى القرآني وعلاقته بإعجاز القرآن التأثيري

المبحث الخامس: الموضوعات القرآنية وعلاقتها بإعجاز القرآن التأثيري

المبحث الأول: النظم القرآني وأثره في إعجاز القرآن

المطلب الأول: مفهوم النظم" وحقيقته

جاء في معنى النظم أنه التأليف والجمع، جاء في اللسان، "النظم: التأليف" "ومنه نظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك"[١].

ونظم الكلام من المجاز، وهذا نظم حسن، وانتظم كلامه وأمره وليس لأمره نظام، إذا لم تستقم طريقته.[٢]

ونظم القرآن: عبارته التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة، ومن كل شيء ما تناسقت أجزاؤه على نسق واحد.[٣]

وقد حدد صاحب كتاب التعريفات إلى أن النظم هو: "تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني، متناسبة الدلالات، على حسب ما يقتضيه العقل"[٤].

ولا يختلف العلماء في معنى النظم فهم يتفقون على هذا المعنى، وإن كان الإمام عبد القاهر الجرجاني هو الذي اشتهر في نظرية النظم، وأنها الوجه البارز في إعجاز القرآن الكريم فقد قال: إن نظم الكلم هو "تناسق الألفاظ

---

* هناك كتب كثيرة في النظم القرآني وقد اعتمدت أغلب هذه المؤلفات على دلائل الإعجاز للجرجاني، وقد حاول اصحابها إبراز نظرية النظم وشرحها وقد اكتفيت أنا بالرجوع إلى الدلائل وبعض المراجع تاركاً لمن أراد الاستزادة أن يرجع إلى هذه المراجع التي فصلت كثيراً في النظم من مثل كتاب فتحي أحمد عامر "فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم"

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٢، ص٥٧٨.

(٢) انظر: محمود بن عمر الزمخشري، **أساس البلاغة**، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٢، ص ٦٤١.

(٣) مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، إخراج إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة العلمية، طهران، ج٢، ص٩٤١.

(٤) علي الجرجاني، **التعريفات**، ص٣١٠.

ودلالتها وتلاقي الألفاظ مع معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"[١] وهو من هذا يرى أن الكلام الذي يؤدى لا بد أن يكون قائماً على ثلاثة عناصر هي: اللفظ، والمعنى والنظم. فالمعنى الذي يدور في النفس نعبر به بتلك الألفاظ، فالألفاظ قوالب المعاني وهذا ما كان شائعاً قبل عصره، فرأى أن هناك عنصراً ثالثاً لا بد من مراعاته حتى يكون الكلام صحيحاً ومقبولاً وهاماً يعرف بالنظم.[٢]

فالنظم هو: "توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلمات والجمل والفقرات، فالكلمات في الجملة لا يجمعها ويؤلف بينها إلا النحو"[٣] فلا معنى للنظم غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم[٤] ومقصد الامام الجرجاني في ابراز نظرية النظم هو الانتصار لقضية المعنى والنظم على قضية اللفظ[٥] فقد شاع في عصره الكلام عن إعجاز القرآن الكريم، وأن إعجاز القرآن كامن في ألفاظ القرآن وحدها دون سواها؛ وفي هذا يفصل الجرجاني الكلام فيقول في إعجاز القرآن راداً على أولئك الذين يقولون بأن إعجاز القرآن في الكلم المفردة فيقول: "إنكم تتلون قول الله تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله**﴾[٦] وقوله عز وجل ﴿**قل فأتوا بعشر سور مثله**﴾[٧] وقوله ﴿**بسورة من مثله**﴾[٨]. فقولوا الآن: أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا القرآن بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذي إذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله؟ ولا بد من "لا" لأنهم إن قالوا: يجوز أبطلوا التحدي من حيث أن التحدي

(١) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٥١. وانظر: فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت (٦٠٦هـ)، **نهاية الايجاز في دراية الإعجاز** تحقيق إبراهيم السامرائي ومحمد بركات أبو علي، الطبعة الأولى، دار الفكر، عمان، ١٩٨٥، ص ١٤١.

(٢) انظر: عباس، **إعجاز القرآن الكريم**، ص ص٦٨-٦٩.

(٣) الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص١١٣.

(٤) انظر: الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٢٤٠.

(٥) انظر: الخالدي، **البيان في اعجاز القرآن**، ص١١٢.

(٦) الاسراء: ٨٨.

(٧) هود: ١٣.

(٨) البقرة: ٢٤.

كما لا يخفى مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف، ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوماً للمطالب، ويبطل بذلك دعوى الإعجاز أيضاً، وذلك لأنه لا يتصور أن يقال: إنه كان عجز حتى يثبت معجوز عنه معلوم، فلا يقوم في عقل عاقل أن يقول لخصم له: قد أعجزك أن تفعل مثل فعلي. وهو لا يشير إلى وصف يعلمه في فعله ويراه قد وقع عليه.[١]

ثم إن هذا الوصف ينبغي أن يكون وصفاً قد تجدد بالقرآن وأمراً لم يوجد في غيره ولم يعرف قبل نزوله: وإذا كان كذلك فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى المحال وهو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، قد حدث في حذاقة حروفها وأصدائها أوصاف لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن، وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلّوة في القرآن لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن"[٢].

فهو ينفي أن تكون الكلمة المفردة معجزة فالكلمة هي اسم وفعل وحرف، ولا بد من ترتيب صحيح بين هذه الأجزاء، فلا يمكن أن يكون الترتيب بين حرف وحرف، وكذلك لا يجوز الترتيب بين فعلين، إنما الترتيب يكون بين اسمين، أو اسم وفعل، أو حرف يربط بين الاسم والفعل.[٣] وهو بعد ذلك لم يحصر الإعجاز على المعنى فقط، فهو يقول "ولا يجوز أن تكون في معاني الكلم المفردة التي هي بوضع اللغة لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدد في معنى الحمد، والرب، ومعنى العالمين، والملك، واليوم، والدين، وهكذا. وصف لم يكن قبل نزول القرآن. وهذا

---

(١) يضرب الجرجاني هنا مثلاً فيقول: "أفلا ترى أنه لو قال رجل لآخر: إني قد أحدثت في خاتم عملته صنعة أنت لا تستطيع مثلها. لم تتجه له عليه حجة، ولم يثبت به أنه قد أتى بما يعجزه إلا من بعد أن يريه الخاتم ويشير له إلى ما زعم أنه أبدعه فيه من الصنعة، لأنه لا يصح وصف الإنسان بأنه قد عجز عن شيء حتى يريد ذلك الشيء ويقصد إليه ثم لا يتأتى به. وليس يتصور أن يقصد إلى شيء لا يعلمه وأن تكون منه إرادة لأمر لا يعمله في جملة ولا تفصيل -الدلائل ص٢٤٩.

(٢) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص ص٢٤٩-٢٥٠.

(٣) انظر: عباس، **إعجاز القرآن الكريم**، ص٦٩.

ما لو كان ههنا شيء أبعد من المحال وأشنع لكان إياه"[١]. فالألفاظ هي هي تعطي المعنى نفسه ولا يتجدد المعنى من زمن إلى آخر أو من جملة إلى أخرى، إنما قد يكون هناك رونق وجمال لصياغة دون أخرى إذا ما روعي فيها توخي معاني النحو ورتبت على أكمل وجه من وجوه الفصاحة والبيان.

وقد يظن البعض أن الامام الجرجاني بهذا قد أغفل أهمية الكلمة المفردة وأنه أنكر فصاحة الألفاظ. والجواب على ذلك أن الامام الجرجاني لا ينكر أن يكون للألفاظ المفردة فصاحة بمعنى أنها خفيفة في النطق أو على السمع، ولكن حديثه هو عن الكلمات مجموعة إلى بعضها البعض، وليس عن الكلمات المفردة. وقد أفرد الجرجاني لذلك فصلاً فقال فيه "والجواب وبالله التوفيق أن يقال للمحتج بذلك: قولك أنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين يحتمل أمرين:

أحدهما: أن تريد باللفظين كلمتين معناهما واحد في اللغة مثل الليث والاسد ومثل شحط وبعد وأشباه ذلك مما وُضع اللفظان فيه لمعنى.

الثاني: أن تريد كلامين.

فإن أردت الأول خرجت من المسألة لأن كلامنا نحن في فصاحة تحدث من بعد التأليف دون الفصاحة التي توصف بها اللفظة مفردة ومن غير أن يعتبر حالها مع غيرها"[٢].

فالإمام الجرجاني لا ينكر أن بعض الكلمات المفردة أفصح من بعض من حيث خفتها وجرسها، وهذا لا شأن له بالنظم، لأن النظم لا يكون في الكلمة المفردة، إنما هو في الكلمات مجتمعة إلى بعضها وعند ذلك فإن فصاحة هذا النظم تعود إلى المعنى.[٣]

---

(١) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٢٥٠.

(٢) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص ص٢٧٠-٢٧١.

(٣) انظر: عباس، **إعجاز القرآن الكريم**، ص٧٤.

بعد ذلك ما هي حقيقة النظم؟ وما هو جوهر هذه النظرية؟ يقرر عبد القاهر أن التحدي قد وقع في القرآن الكريم، وأن القرآن قد تحدى العرب بأن يأتوا بمثله، فعجزوا[١]. وأن هذا العجز لم يكن في الكلمات المفردة بحروفها، ولم يكن في معاني الكلمات التي لها بوضع اللغة، وهو ليس في تركيب الحركات والسكنات، وهو ليس في المقاطع والفواصل ولا في خفة الحروف على اللسان وليس في الاستعارة[٢] إنما كان العجز بالنظم وحده وليس بما سواه وقد قال الجرجاني بعد أن أبطل القول بغير النظم: "وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف، لأنه ليس بعدما أبطلنا أن يكون فيه إلا النظم. وإذا ثبت أنه في النظم والتأليف. وكنا قد علمنا أن ليس النظم غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، وإنا إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم للكلم المفردة سلكاً ينظمها وجامعاً يجمع شملها ويؤلفها ويجعل بعضها بسبب من بعض غير توخي معاني النحو وأحكامه فيها - طلبنا ما كل محال دونه"[٣].

فحقيقة النظم تكمن في توخي معاني النحو. لأننا إذا أردنا أن ننطق بالكلمات والجمل، فلا بد منا أن نرتبها ترتيباً مقبولاً معقولاً فالنظم ليس ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق[٤]، لكنه تناسق دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل[٥] فالألفاظ هي قوالب للمعاني، فالمعنى هو المعبر عنه، واللفظ هو المعبر به فالكلام الذي يؤدى عند المتكلم ويراد له القبول عند المخاطبين لا بد له من عناصر ثلاثة هي اللفظ والمعنى والنظم[٦].

---

(١) انظر: الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٢٤٩.

(٢) المرجع ذاته، ص ص٢٤٩-٢٥٢، وانظر الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص ص١١٢-١١٣، وانظر منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والاشاعرة، الطبعة الثالثة، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٨٦، ص ص١٤٣-١٤٥.

(٣) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٢٥٣.

(٤) المصدر ذاته، ص٥١.

(٥) المصدر ذاته ص ٥١. وانظر سلطان، **اعجاز القرآن بين المعتزلة والاشاعرة**، ص١٤٥.

(٦) انظر: عباس، **اعجاز القرآن الكريم**، ص٦٨.

وبيان ذلك أن الكلمة أو اللفظ كما نعلم اسم وفعل وحرف، ولا يجوز اطلاقها دون ترتيب أو توخٍ لمعاني النحو. فلا يمكن الترتيب بين حرف وحرف، كما لا يمكن الترتيب بين فعلين. إنما يكون الترتيب بين اسمين أو بين اسمٍ وفعل، أو اسم وفعل وحرف، وهذا الترتيب هو اللبنة الأولى في النظم.[١]

أما اللبنة الثانية فهي أن يكون النظم دقيقاً، بحيث تُرتب المعاني التي نريدها في النفس أولاً، ثم نختار لها لفظاً يتفق مع المعنى الذي حضر في النفس. فنحن نرتب المعنى الذي نريد أن نتحدث عنه أولاً، ثم نرتب الألفاظ التي نريد أن نعبر بها فالنظم يقوم من خلال عمليتين اثنتين:

أولاهما: ترتيب المعاني في النفس

ثانيهما: ترتيب الألفاظ في النطق. فالنظم شيء غير اللفظ والمعنى[٢].

وكمثال على النظم القرآني وأنه الوجه البارز في إعجاز القرآن الكريم يضرب الجرجاني مثلاً بقوله تعالى: ﴿**واشتعل الرأس شيباً**﴾[٣] فصورة المعنى فيها في قول من يقول: وشاب رأسي كله وأبيض رأسي كله.[٤] فهو يرى أن الاستعارة في كلمة اشتعل. حيث أن الاشتعال هو للنار، ويرى أيضاً أن الفضل للنظم لا للإستعارة وحدها، إذ أنه لو لم يكن كذلك لجاز أن نقول واشتعل شيب الرأس ولا شك أن في الجملتين اختلافاً كبيراً فالنظم في الآية يدل على أن المعنى غير الذي هو في القول وذلك كقولنا (اشتعلت النار في البيت) و(اشتعل البيت ناراً) فالأول يفيد اشتعال النار في جزء من البيت والثاني يفيد أن الاشتعال في كل البيت.[٥].

---

(١) المرجع ذاته، ص٦٩.

(٢) المرجع ذاته، ص ص٦٩-٧١. بتصرف.

(٣) مريم: ٤.

(٤) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٢٧٤.

(٥) انظر: عباس، **إعجاز القرآن الكريم**، ص ص٧٧-٧٨.

فخلاصة الأمر أن الكلام على ضربين، كلام منظوم، يؤدي إلى معنى مباشر بدلالة اللفظ مثل قولنا: خرج زيد إذا أردنا أن نخبر عن زيد بالخروج على الحقيقة. وضرب آخر لا نصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلنا اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم نجد لذلك المعنى دلالة ثانية نصل بها إلى الغرض[١].

"فالنظم يؤدي إلى المعنى وإلى معنى المعنى، أي إلى المعاني الإضافية والنظم ومعانيه إنما هي "معاني النحو" فالناظم لا يفعل سوى توخي معاني النحو"[٢].

"وقد اتضح اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[٣].

المطلب الثاني: علاقة النظم القرآني بإعجاز القرآن التأثيري

ثبت أن التحدي قد وقع بالنظم وثبت عجز العرب عن الاتيان بمثل القرآن لذلك فإن الاعجاز القرآني يكمن في نظمه وقد أثبت عبد القاهر الجرجاني في أن الاعجاز هو عجز العرب عن معارضة القرآن، وحتى يتسنى للناظر في كتاب الله أن يصل إلى فهم أسراره وإعجازه ينبغي أن يكون ملماً بعلوم العربية وأساليب البلغاء ولا سيما البيان والشعر. ويرى أن المفسرين لا بد أن يكونوا على علم بالأساليب وما وراء الألفاظ لئلا يفسدوا المعاني ويبطلوا الألفاظ.[٤]

---

(١) سلطان، **إعجاز القرآن بين المعتزلة والاشاعرة**، ص ص١٤٥-١٤٦.

(٢) المرجع ذاته، ص١٤٦.

(٣) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص ص٤٨-٤٩.

(٤) انظر: حاتم الضامن، **نظرية النظم تاريخ وتطور**، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩، ص٩٢.

لذلك نراه رد على كل من قال بإعجاز القرآن الكريم من غير وجه النظم فرد على من قال بإعجازه بالصرفة ورد على من قال بأنه يجوز أن يؤتى بمثل القرآن بعد انقضاء زمن النبي صلى الله عليه وسلم ومضي وقت التحدي فيكون مثله.[١]

لقد ربط الجرجاني الاعجاز بالنظم فرأى أن القرآن الكريم معجز بنظمه[٢] فقال: "ما أظن بك أيها القارئ لكتابنا إن كنت وفيته حقه من النظر، وتدبرته حق التدبر، إلا أنك قد علمت علماً أبى أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف نحوكَ مذهبٌ، أن ليس النظم شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم، وأنك قد تبينت أنه إذا رُفع معاني النحو وأحكامه مما بين الكلم حتى لا تراد فيها في جملة ولا تفصيل، خرجت الكلم المنطوق ببعضها في أثر بعض في البيت من الشعر والفصل من النثر عن أن يكون لكونها في مواضعها التي وضعت فيها موجب ومقتضى، وعن أن يتصور أن يقال في كلمة منها إنها مرتبطة بصاحبة لها، ومتعلقة بها وكائنة بسبب منها، وإن حسن تصورك لذلك قد ثبّت فيه قدمك، وملأ من نفسك، وباعدك من أن تحن إلى الذي كنت عليه، وأن يجرك الإلف والإعتماد إليه، وأنك جعلت ما قلناه نقشاً في صدرك، وأثبته في سويداء قلبك، وصادقت بينه وبين نفسك، فإن كان الأمر كما ظنناه رجونا أن يصادف الذي نريد أن نستأنفه بعون الله تعالى منك فيه حسنة تقيك الملل، ورغبة صادقة تدفع عنك السأم، وأريحية يخف معها عليك تعب الفكر وكد النظر، والله تعالى وليّ توفيقك وتوفيقنا بمنه وفضله.

فإذا ثبت الآن أن لا شك ولا مرية في أن ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم، ثبت من ذلك أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه

---

(١) المرجع ذاته، ص٩٣.

(٢) المرجع ذاته، ص٩٤.

وفروقه، ولم يعلم أنها معدنه وقَعانه[١]، وموضعه ومكانه، وأنه لا مستنبط له سواها، وأن لا وجه لطلبه فيما عداها، غاء نقشه بالكاذب من الطمع، ومسلم لها إلى الخدع، وأنه إن أبى أن يكون فيها كان قد أبى أن يكون القرآن معجزاً بنظمه، ولزمه أن يثبت شيئاً آخر يكون معجزاً به وأن يلحق بأصحاب الصرفة[٢] فيدفع الإعجاز من أصله وهذا تقرير لا يدفعه إلا معاند يعد الرجوع عن باطل قد اعتقده عجزاً، والثبات عليه من بعد لزوم الحجة جلداً، ومن وضع نفسه في هذه المنزلة كان قد باعدها من الإنسانية"[٣].

فالإعجاز عنده كامن في النظم لا يوجد في شيء سواه، وارجاع الاعجاز إلى غير هذا الوجه هو هرب من الخوض فيه كما فعل من قال بالصرفة.

ولقد بين الجرجاني الجوانب التي أعجزت العرب فقال: "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادي آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر، وصورة كل عظة. تنبيهٌ وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشراً عشراً وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه منها، أو أحدى وأخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً لم يدع في نفس بليغ منهم -ولو حك بيافوخه السماء- موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول وخلدت القروم[٤] فلم تملك أن تصول"[٥].

---

(١) أي منزلته.

(٢) يعني المعتزلة.

(٣) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص ص٣٣٥-٣٣٦.

(٤) أي أقامت في أماكنها الفحول.

(٥) المرجع ذاته، ص٤٤.

وللوقوف على علاقة النظم بالإعجاز التأثيري فإن طبيعة النظم تحدد ذلك وذلك عن طريق معرفة أن المعاني تترتب ترتيباً ذهنياً ثم ينتقي لها ألفاظ متآلفة معها فتعطي معنى ولفظاً متناسقين يُعرف بالنظم.

ومن البداهة أن يعلم أن هدف كل خطاب أن يرسل رسالة ذات غاية معينة، فالخطيب عندما يلقي خطبة إنما هذه الخطبة كانت تدور في ذهنه فترجمها على الواقع بألفاظ لتعبر عن تلك المعاني، وهدفه من ذلك أن يوصل أو يؤثر في المستمعين من خلال خطبته، وهذا حال كل إنسان يسعى إلى غاية وهدف معين.

والقرآن الكريم هو رسالة سماوية من الله سبحانه وتعالى، له مقاصد وغايات عديدة، من أهمها إخراج الناس من الظلمات إلى النور والتأثير عليهم حتى يعبدوا الله سبحانه وتعالى ويتحرروا من كل ما سواه. فالقرآن خطاب الله سبحانه وتعالى إلى الناس رتبت معانيه على أكمل وجه فجاء القرآن مؤثراً تأثيراً كبيراً على قارئه ومستمعه.

وإذا عدنا إلى نظرية النظم فإننا نجد أن النظم يعتمد على جانبين مهمين هما:

١- الجانب العقلي، وهو الاتجاه الذي يوضح الفكرة بالإعتماد على المنطق وقضاياه في سبيل الوصول إلى إبراز عناصر هذه الفكرة[١].

٢- أما الجانب الثاني فهو الجانب النفسي، ونظرية النظم استندت إلى جانب معاني النحو والمنطق (العقل) إلى عنصر ثالث هو القارئ نفسه وعملية التأثير فيه.[٢]

---

(١) سلطان، **إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة**، ص١٤٨.

(٢) المرجع ذاته، ص١٥١.

فإذا كان النظم يتميز عن بعضه فإن ذلك عائد إلى الناظم الذي يتميز عن الآخر بقدر معانيه التي قصد إليها وأغراضه التي وضع لها الكلام[١] فسبيل هذا الأمر "سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش، فكما أنك ترى الرجل قد تهدّى في الأصباغ التي عمل الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفس الاصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها إلى ما لم يتهدّ إليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو، ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم"[٢].

فالقضية هنا تكمن في التأثير النفسي على القارئ أو المستمع، يتوخى فيه الناظم أقرب المسالك وأوضحها إلى صوغ الجمال بتفهم مقاديره ومواقعه وكيفية نسجه وترتيبه ومن ثم يضمن التأثير الكامل والفوز عند قارئه أو مستمعه[٣].

ثم إن المعيار الذي يعرف فيه النظم بين كلامين أو عبارتين هو مقدار التأثير على المستمع "فلا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها"[٤].

فإذا كان حال الكلام العام فيه توخٍ لمعاني النحو على أكمل وجه ويراد به التأثير على السامع، فما هو حال كتاب الله سبحانه وتعالى والذي يعد فيه النظم الوجه الأبرز في مجال إعجاز القرآن. فنظم القرآن الكريم روعي فيه أدق وأبلغ وأفصح المعاني والألفاظ في النحو فجاء النظم القرآني على أعلى مستوى من البيان والفصاحة فكان مؤثراً في سامعيه من نفس المستوى من التأثير.

---

(١) المرجع ذاته، ص١٥١.

(٢) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص٧٤.

(٣) انظر: سلطان، **إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة**، ص١٥٢.

(٤) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص١٧٤.

"فالقرآن العظيم يتألق في اختيار ألفاظه، فكل كلمة توضع في مكانها، كاللبنة في البناء، ولا يصلح غيرها موضعها، ولو تقارب المعنى وتساوى معها في الطول والعرض، لأن لكل كلمة دلالة خاصة، وإيحاءً خاصاً، وانسجاماً في التركيب، ولا يستطيع أن يلم بسائر الدلالات، ويوازن بين دلالة وأخرى، ويضع الكلمة المعبرة عن الموقف أصدق تعبير، والمصورة لخلجات النفوس، وخطرات الضمائر إلا العليم الخبير، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"(١).

وقد رد بعض العلماء المعاصرين تأثير النظم القرآني إلى الايقاع الصوتي، وعلى الروح المستشفة من هذا النظم، التي تخاطب الروح، وتحرك الوجدان، بأبدع وأروع ما يمكن أن يحركه كلام منظوم. "فألفاظ القرآن في جوهرها ومضمونها، ليست ألفاظاً فقط، بل هي حياة تضطر فيها زيادة على صوت النفس الطبيعي في تركيب اللغة، وصوت الفكر أو العقل، فيما فوق ذلك إلى صوت الحس، في الألفاظ والمعاني"(٢).

ثم إن الجملة القرآنية بتركيبها وسبكها هو الذي يمنح لها الحياة وذلك لأن النظم القرآني خاضع لقواعد النحو(٣)، فقد روعي في النظم القرآني قواعد النحو حتى تحسب ألفاظه هي التي تنقاد لمعانيه. فإذا تعمقت فيه انتهيت إلى أن معانيه منقادة لألفاظه. والآية القرآنية تجيء تبعاً للمعنى النفسي، فترسمه وتبرز له طولاً وعرضاً أو تجسمه، وتجعله شاخصاً أمام البصر، حتى يزيد تمكناً في النفس، وحتى تثبت لأصحاب الفطرة اللسانية عجز مقدورهم، فيتحقق صدق المعجزة(٤).

"إن هذا التمازج بين المعاني والألفاظ، وبين الألفاظ والمعاني والألفاظ تتناسب مع المواقف، وتستقر فيها الدلالات دون أن نعلق أو نحس بالنبو، ومن العجيب حقاً أن ذلك مطرد في كل آي القرآن.

---

(١) العمري، **مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري**، ص٢٩٠.

(٢) المرجع ذاته، ص٢٨٤.

(٣) هناك آيات كثيرة لم تخضع لقواعد النحو بل إن قواعد النحو أصبحت خاضعة لها بحيث عدت هذه الآيات نماذج معتمدة في النحو.

(٤) انظر: المرجع ذاته، ص ص٢٩٤-٢٩٦.

وهذا البناء المحكم قائم على أساس من معرفة خلجات النفس، أوعية صالحة لمحتوياتها، ومحتويات لا تصلح بغير هذه الأوعية، حتى تسمو فوق مدارك البشر، فيؤمنون بأنها من عند الله"[١].

ومن ينظر في قوله تعالى: ﴿**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة**﴾[٢] يجد أن التنكير دل على حسن وروعة ولطف موقع لا يقادر قدرُه. يقول الجرجاني: "إذا أنت راجعت نفسك وأذكيت حسك وجدت لهذا التنكير وأنّ قِيلَ (على حياة) ولم يقل: على الحياة: حسناً وروعة ولطف موقع لا يُقادر قدرُه وتجدك تعدم ذلك مع التعريف وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافهما"[٣].

أما عن السبب فإنه يعلل ذلك "أن المعنى على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها وذلك لا يحرص عليه إلا الحي، فأما العادم للحياة فلا يصح منه الحرص على الحياة ولا على غيرها"[٤].

فالقرآن الكريم عرف خلجات النفس، كما في قوله تعالى: ﴿**وإذ قال ربُك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾[٥] فهذه الآيات تدل دلالة واضحة على أن النفس الانسانية قد خلقت من المادة والروح وهذا من شأنه أن يعين على فهم حقيقة النفس، فنجد تارة أن النفس تميل إلى المادة أو الطين فتغرق في الشهوات وتسد منافذ الروح فتصبح كالأنعام بل هي أضل، وتارة نجد بعض النفوس تسمو بالروح فترتفع وترقى إلى مستوى قد يصل بها إلى عالم الملائكة «وهذا ناموس خُلُقي جعله الله مبدأ لهذا العالم قبل تعميره"، فكان النظم القرآني على أكمل وجه من توخٍ لمعاني وقواعد النحو فيه فكان التأثير في النفس أيضاً أبلغ تأثير لكلام منظوم، وذلك لتناسق اللفظ والمعنى وفق النظم القرآني.

---

(١) انظر: المرجع ذاته، ص٢٩٧.

(٢) البقرة: ٩٦.

(٣) الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص١٩٣.

(٤) المرجع ذاته، ص١٩٣.

(٥) ص: ٧١-٧٢.

المبحث الثاني: الإيقاع الموسيقي وعلاقته بإعجاز القرآن التأثيري

يعتبر الإيقاع الموسيقي من الدراسات الحديثة في مجال تطبيقه على القرآن الكريم، وإن كان الاهتمام سابقاً من قبل العرب في هذا المجال؛ إلا أنه لم يكن واضح القواعد إلا عن طريق الشعر العربي الذي كان يستند على قافية موزونة والتي عرفت فيما بعد بعلم العروض وبحور الشعر.

فالحديث عن الايقاع الموسيقي في القرآن الكريم لا يعد غريباً فلا شك أن هناك إيقاعاً موسيقياً "ناشئ من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص"[١]. إلا أن الحديث عن هذه الظاهرة وأقصد ظاهرة الايقاع الموسيقي في القرآن لم يتجاوز ذلك الايقاع الظاهري، مع أن هذه الظاهرة واضحة جد الوضوح في القرآن.[٢]

وقد جاء في معنى الايقاع لغة: أن الإيقاع من إيقاع اللحن والغناء وهو أن يوقع الألحان ويبينها.[٣]

فالإيقاع هو إحداث صوت أو جرس خافت أو رفيع، يتجلى في كثير من الأمور من أهمها إيقاع الألحان.[٤]

ومما يجدر الاشارة إليه في بداية هذا المبحث أن المقصود في الايقاع الموسيقي ليس أن تلحن القرآن الكريم بالصورة التي يشهدها عصرنا في مجال تلحين الغناء والشعر، فهذا لا يجيزه الشرع، إنما المقصود بالايقاع الموسيقي في

---

(١) قطب، **التصوير الفني**، ص٨٧.

(٢) انظر: المرجع ذاته، ص٨٧.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٨، ص٤٠٨.

(٤) عمر السلامي، **الإعجاز الفني في القرآن**، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس ١٩٨٠، ص٢١٥. وانظر الخالدي، **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**، ص١٠٦.

القرآن الكريم هو ذلك الجرس الذي تصنعه حروف القرآن الكريم من خلال النظم ومن خلال الفاصلة القرآنية وتلاوة القرآن وفق أحكام التلاوة والتجويد، وما ينتج عنها من نغم -إن صح التعبير- يشد القلب ويريح النفس مما يلحق بها من توتر، ذلك أنه ثبت في آثار عديدة جواز تجويد القرآن الكريم بعدة لحون من لحون العرب فقد صح أن أبا موسى الأشعري قد أوتي مزماراً من مزامير آل داود كما صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يستمع للقرآن من الصحابة من أمثال ابن مسعود، كما أنه لا يخفى أن اللغة العربية تتمتع بجرس وإيقاع يتميز عن جميع اللغات الأخرى.

فالإيقاع على فترات متساوية ظاهرة مألوفة في طبيعة الإنسان نفسه، فبين ضربات القلب انتظام، وبين وحدات التنفس انتظام، وبين النوم واليقظة انتظام وهكذا"[١].

ولقد اختار الله سبحانه وتعالى آخر رسالاته وهي القرآن في أن تكون في العربية، "لما تختص به من الموسيقى في أصواتها وصيغها ألفاظاً وعبارات، ولما كان تهيأ لها من ذلك وافر حظٍ، حتى كانت سمة أهلها من دون كل شيء غيرها، فإذا هي تاريخهم بكل أبعاد حياتهم، وإذا تاريخهم لغتهم بتراثها من الشعر والكلام، تجري بها ألسنتهم، وترتفع بصيغها أصواتهم... وإن كانت موسيقى قراءة أحدهم تقوم بما في لغته من تلك الخصائص التي تنطوي عليها عناصر العربية اللفظية صوتية كانت أو صيغية"[٢].

---

(١) السلامي، **الاعجاز الفني في القرآن**، ص٢١٧، نقلاً عن فلسفة وفن ص٢١٠.

(٢) محي الدين رمضان، **وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن**، الطبعة الأولى، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٢، ص٣٦.

فاللغة العربية ساعدت في أنها "تتميز عن غيرها من اللغات بزخامة موسيقيتها، وخصوبة فطرة هذه الموسيقى النابعة من فطرة الحياة، فحروفها وأصواتها واسعة الأفق، كاملة في مدرجها الصوتي، حسنة التوزيع للحروف والأصوات في هذا المدرج، متميزة المخارج والصفات، ثابتة الأصوات عبر القرون... لكل نوع من الحروف والأصوات في هذا المزج وظيفة في تكوين المعنى، وتثبيت أصله وقراره وتنويع شكله وألوانه، مع تناسق بين أصوات اللغة، وأصوات الطبيعة وتوافق بين الصورة اللفظية والصورة المعنوية المقصودة"(١).

لقد جاء القرآن في لغة انفردت بالتقفية في التعبير الفني والتي تتمتع بمجال يشعر المرء فيه بنغم الكلام فيقولون: "إن هنالك ميلاً غريزياً في كل كتلة من عدة مقاطع تشبه الفقرات القصار أو العبارات الصغيرة. فقد نسمع في عشر من الثواني ما يكاد يبلغ خمسين مقطعاً صوتياً تسمعها الأذن فتلتقطها كتلاً من المقاطع تطول أو تقصر، فإذا ترددت في أواخر هذه الكتل الصوتية مقاطع بعينها شعرنا بسهولة ترديدها، وأحسسنا بغبطة وسرور حين سماعها، وبعث هذا فينا الرضى والاطمئنان إليها"(٢).

وقد تمثلت الايقاعات الموسيقية والنغمية في اللفظة الواحدة في اللغة العربية، كما تمثلت أيضاً في الجملة والمقطع والبيت والفقرة، "فكما أن التصوير يكون باللون والحركة والصوت والتخييل والتجسيم، يكون أيضاً بالنغمة في جرس الكلمات، وإيقاع العبارات وموسيقى السياق، الأمر الذي جعل البلاغيين يصنفون موسيقى الكلام إلى نوعين من الإيقاع، ظاهر وخفي: فالظاهر في وحدة التفعيلية ووحدة الوزن المتمثل في التناسب التام بين الكلمات والأجزاء والحركات والسكنات، بحيث تعشقه الأذن وتُسر به النفس،

---

(١) السلامي، **الاعجاز الفني في القرآن**، ص٢١٩، نقلاً عن خصائص العربية، ص٢٥.

(٢) محمد الحسناوي، **الفاصلة في القرآن**، الطبعة الثانية، دار عمار، عمان، ١٩٨٦، ص ص١٧٥-١٧٦ نقلاً عن اللغة الشاعرة، ص١١.

والخفي نابع من تنسيق العبارات وتخيير الألفاظ وائتلافها وانسجامهاونظمها في نسق خاص مع الجو النفسي الماثل في وحدة الأحاسيس والمشاعر، والخطوات النفسية التي تصاحب النصوص، والتناسب في الانتقال من فكرة إلى فكرة ومن غرض إلى غرض"[١].

وقد كانت العربية تملك هذه الصفات والسمات الموسيقية إلا أن العرب كانوا يترسلون في منطقهم كيفما اتفق لهم، "لا يراعون أكثر من تكييف الصوت؛ دون تكييف الحروف التي هي مادة الصوت، إلا أن يتفق من هذه قطع في كلامهم تجيء بطبيعة الغرض الذي تكون فيه، أو بما يعمل لها المتكلم، على نمط من النظم الموسيقي، إن لم يكن في الغاية ففيه ما عرفوه من هذه الغاية"[٢].

ولما جاء القرآن الكريم، جاءت حروفه في كلماته، وكلماته في حروفه الحاناً لغوية رائعة توفرت فيها الموسيقى ذات إيقاع جذاب مكون من "مخارج حروف وتناسق ايقاعات بين كلمات الفقرة واتجاهات مد في الكلمات ثم اتجاهات مد في نهاية الفاصلة المطردة في الآيات ومن حرف الفاصلة ذاته"[٣]. "وقد كان لائتلاف كلمات القرآن وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هو توقيعها فلم يفت العرب هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم... ونتبين ذلك في ترتيل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن، مما تراعى فيه أحكام القراءة، وطرق الأداء، فإنه لا بد ظاهر بالنفس على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبةٍ للقرآن، بل إن التحسين هذا يخرج الكلام من صفة الفصاحة ويجرده من زينة الاسلوب"[٤].

---

(١) محمد الدالي، **الوحدة الفنية في القصة القرآنية**، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ص٢٢٠-٢٢١. بتصرف.

(٢) الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ص١٨٢.

(٣) الخالدي، **نظرية التصوير الفني**، ص١٨١، نقلاً عن الظلال، ٢٠٣٩/٤.

(٤) الرافعي، إعجاز القرآن، ص ص١٨٢-١٨٣، بتصرف.

لقد ثبت أن النظم الموسيقي في القرآن الكريم هو "الذي صفى طباع البلغاء بعد الاسلام، وتولى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم -مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف- ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم... ولولا القرآن وهذا الأثر من نظمه العجيب لذهب العرب بكل فضيلة في اللغة، ولم يبق بعدهم للفصحاء الا كما بقي من بعد هؤلاء في العامية"[١].

إن النظم القرآني -والذي أفردنا له مبحثاً خاصاً في هذا الفصل-، والمتمثل في اختيار الألفاظ لأدق المعاني هو الذي جعل للقرآن الكريم مزية الايقاع الموسيقي فأعطاه صفة موسيقية فريدة، تميزت عن الكلام البليغ الذي ألفه فحول العرب وسلاطين البلاغة.

وإذا كان القرآن الكريم ليس شعراً كما قال تعالى ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين**﴾[٢]. وقوله تعالى ﴿**وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون**﴾[٣] وكذلك صح أنه لا يشبه نثر البلغاء والأدباء، إنما هو: (نوع من النثر ممتاز مبدع فريد ممتنع، جميل متفرد لا هو من سجع الكهان ولا من حكمة السجاع، إنما هو سور لآيات منسقة ومتساوقة يربط بينها فواصل محكمة، غاية في الدقة، وروابط قوية وخفية)[٤].

"لقد جمع القرآن بين موسيقى الشعر، حيث نغمة الوزن والإهتزاز النفسي، وموسيقى النثر، حيث الإيقاع العميق الذي يحدثه دقة التوزيع وحُسنه بين الحروف ذاتها والكلمة والعبارة والآية والسورة، وموسيقى الحس، حيث مشاركة الحواس لاهتزازات النفس، وقوة ارهافها لتموجات الموسيقى أياً

---

(١) المرجع ذاته، ص١٨٣، بتصرف.

(٢) يس: ٦٩.

(٣) الحاقة: ٤٠.

(٤) الدالي، **الوحدة الفنية في القصة القرآنية**، ص٢٢١.

كان مصدرها، وموسيقى الروح، حيث النشوة الهادئة النابعة من مجموع أنواع الموسيقى. فالقرآن اكتمال لنماذج موسيقية حية في تراكيب خالدة للغة العرب"[١].

ويتضح الإعجاز الموسيقي في القرآن في عدة مظاهر من أهمها:

أولاً: التجويد والترتيل الإيقاعي الذي قلما يتوفر في مطلق كلام العرب[٢].

وهذه ظاهرة صحيحة إذا راعينا أحكام القراءة وطرق الأداء، لكنها مجحفة إذا نظرنا إلى مطلق الموسيقى، دون مراعاة قيود معينة.[٣]

وقد جاء في الحث على حسن الأداء بالقرآن آثار عديدة منها قوله تعالى ﴿**ورتل القرآن ترتيلا**﴾[٤] ومما جاء من الآثار النبوية ما جاء في حثه صلى الله عليه وسلم كثيراً من الصحابة من مثل خبر أبي موسى الأشعري إذ سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن فامتدح صوته ووصفه بأنه أوتي مزماراً من مزامير آل داوود، فقال أبو موسى لمن أبلغه كلام الرسول "لو علمت أن نبي الله صلى الله عليه وسلم يستمع لقراءتي حبرتها تحبيراً"[٥].

وهذه التلاوة المرتلة على أصولها هي "مظهر الإنفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مداً أو غنة أو ليناً أو شدة، وبما يهيء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها"[٦].

---

(١) السلامي، **الاعجاز الفني في القرآن**، ص٢٢٢.

(٢) الرافعي، **إعجاز القرآن**، ص١٨٤.

(٣) انظر: السلامي، **الإعجاز الفني في القرآن**، ص٢٢٣. بتصرف.

(٤) المزمل: ٤.

(٥) أخرجه البخاري، انظر: **فتح الباري**، ج٨، ص٧١٠، حديث رقم ٥٠٤٨.

(٦) الرافعي، **إعجاز القرآن**، ص ص١٨٣-١٨٤.

ولقد وجدنا الايقاع الموسيقي في القرآن نوعاً من أنواع التصوير الفني القرآني، فوجدنا فيه وحدة النغم تتكرر في آياته، ووجدنا اتساقاً فنياً وخيطاً نفسياً بين فقراته ومقاطعه.[١]

ولقد استشهد كثير من العلماء بأمثلة كثيرة حول الايقاع الموسيقي في هذا الجانب، ومدى تأثر النفس الانسانية بالقرآن الكريم من خلال نظمه الموسيقي المعجز، ومن ذلك ما قيل عن سورة الرحمن وغيرها من السور حيث إن إيقاعها الموسيقي له وقع خاص: "إن المرء ليحار إذا قرأ سورة الرحمن فيتساءل هل انبعث ايقاعها الرضي المنساب من مطلعها أم من ختامها، أم من خلال آياتها؟ وإذا هو يقطع بأن النغم يسري فيها كلها: في فاصلها ومقاطعها، وفي الفاظها وحروفها، وفي انسياقها وانسيابها حتى لو انتقى على حدة مقطعاً من مقاطعها أو من موضوع واحد من موضوعاتها الجزئية، والتمس في أجزائه النغم والايقاع لكان في كل جزء منه نغمة وفي كل حرف منه لحن من الحان السماء"[٢].

إن التلاوة الصحيحة للقرآن هي أبلغ اللغات في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والالحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم، لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه، لأن فيهم طبيعة انسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خُلقت في نفس الإنسان.[٣]

ثانياً: ما هو ناتج عن الفواصل المتساوية في الوزن والقافية[٤]

إن الايقاع الذي ينتج عن هذه الفواصل المتساوية في الوزن تقريباً المتحدة في التقفية تماماً منتشر في القرآن جميعه، فحيثما تلاه المؤمن أحس بالايقاع

---

(١) الدالي، **الوحدة الفنية في القصة القرآنية**، ص٢٢١.

(٢) المرجع ذاته، ص ص٢٢٧-٢٢٨

(٣) الرافعي، **اعجاز القرآن**، ص١٨٤.

(٤) الخالدي، **نظرية التصوير الفني**، ص١٨١. وانظر الرافعي، **اعجاز القرآن**، ص١٨٤.

الداخلي في سياقه ولكنه يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار، والفواصل السريعة. ويتوارى قليلاً في السور الطوال[١]:

"وهذه الفواصل متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد وهو كذلك طبيعي في القرآن"[٢].

ومن الأمثلة على الفاصلة القرآنية بحيث جاءت آياتها متساوية في الوزن متحدة في التقفية ومتحدة في ايقاعها الموسيقي سورة النجم ﴿**والنجم إذا هوى. ما ضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى ...**﴾ إلى قوله تعالى ﴿**تلك إذا قسمة ضيزى**﴾[٣].

فقد جاء الايقاع الموسيقي هنا "متوسط الزمن، تبعاً لتوسط الجملة الموسيقية في الطول. متحداً تبعاً لتوحد الاسلوب الموسيقي، مسترسل الروي كنحو الحديث الذي يشبه التسلسل القصصي"[٤] "فلو أنك قلت: أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة لاختلت القافية ولتأثر الايقاع"[٥].

وظاهرة الفاصلة * هي "طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب

---

(١) انظر: المرجع ذاته، ص١٨١. بتصرف.

(٢) الرافعي، **اعجاز القرآن**، ص ص١٨٤-١٨٥.

(٣) النجم: ١-٢٢.

(٤) قطب، **التصوير الفني**، ص١٠٤.

(٥) المرجع ذاته، ص١٠٤. وانظر الخالدي، **نظرية التصوير الفني**، ص١٨٢.

* عرف العلماء الفاصلة أنها كلمة آخر الآية كقافية الشعر، وقرينة السجع وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب، لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام. انظر: أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، الطبعة الأولى، دار المكتبي، دمشق، ١٩٩٤، ص٣٠٩.

به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة"[١].

وقد برزت ظاهرة الفاصلة في سور عديدة، وقد تجلت في أكثر من سورة من ذلك سورة الرحمن والتي عرضت موضوعات متعددة منها التنويه بالقرآن وذلك عن طريق تقديم ذكر القرآن قبل جميع الألاء، ثم التنويه بالنبي صلى الله عليه وسلم وبأن الله هو الذي علمه القرآن رداً على مزاعم المشركين الذين قالوا أن الذي علمه بشر، ثم التذكير بدلائل قدرة الله سبحانه وتعالى فيما أتقن صنعه مدمجاً في ذلك التذكير بما في ذلك كله من نعم الله على الناس، ثم هناك الموعظة بالفناء والتذكير بيوم الحشر والجزاء، والخاتمة كانت بتعظيم الله والثناء عليه، وقد تخلل ذلك إدماج التنويه بشأن العدل، والأمر بتونية أصحاب الحقوق حقوقهم، وحاجة الناس إلى رحمة الله فيما خلق لهم.[٢]

وقد تميزت سورة الرحمن عن غيرها من السور بأنها (ذات نسق خاص)[٣] وقد تجلى ذلك في بناء السورة كله، وفي إيقاع فواصلها.[٤]

"إن السورة كلها إعلان في ساحة الوجود الكبير، إعلان ينطلق من الملأ الأعلى، فتتجاوب به أرجاء الوجود ويشهده كل من في الوجود وكل ما في الوجود"[٥].

ثالثاً: اختيار صورة خاصة للكلمة مراعاة للايقاع الموسيقي[٦]

"وفي هذا اللون يلاحظ أن اتزان الايقاع في الآيات والفواصل تبدو واضحة في كل موضع على نحو ما ذكرنا أو قريباً من هذه الدقة الكبرى. ودليل ذلك أن يُعْدَل في التعبير عن الصورة القياسية للكلمة إلى صورة خاصة"[٧].

---

(١) الرافعي، **إعجاز القرآن**، ص١٨٥.

(٢) انظر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٧، ص٢٢٩.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٤٤٥.

(٤) المرجع ذاته، ج٦، ص٣٤٤٥.

(٥) المرجع ذاته، ج٦، ص٣٤٤٥.

(٦) الخالدي، **نظرية التصوير الفني في القرآن**، ص١٨٢.

(٧) قطب، **التصوير الفني**، ص ص١٠٤-١٠٥.

ومثال هذا حكاية قول ابراهيم[١]: "قال: ﴿**أفرأيتم ما تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين، الذي خلقني فهو يهدين والذي يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين**﴾[٢]".

"فقد خطفت ياء المتكلم في يهدين، ويسقين، ويشفين، ويحيين" محافظة على حرف القافية مع "تعبدون، والأقدمون، والدين...)[٣] "ومثله ﴿**ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا**﴾[٤] فلو مددت ياء نبغي كما هو القياس لأختل الوزن نوعاً من الاختلال"[٥].

رابعاً: بناء النسق على أساس الايقاع الموسيقي[٦]

وهو "أن يبنى النسق على نحو يختل إذا قدمت أو أخرت فيه، أو عدلت في النظم أي تعديل"[٧] ومثال هذه الحالة قوله تعالى ﴿**ذكر رحمة ربك عبده زكريا، إذ نادى ربه نداءً خفياً، قال: رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، ولم أكن بدعائك رب شقياً**﴾[٨] "فلو حاولت مثلاً أن تغير فقط وضع كلمة "مني" فتجعلها سابقة لكلمة "العظم": قال رب إني وهن مني العظم لأحسست بما يشبه الكسر في وزن الشعر؛ ذلك أنها تتوازن مع "إني" في صدر الفقرة هكذا: "قال رب إني" "وهن العظم مني""[٩].

---

(١) المرجع ذاته، ص١٠٥.

(٢) الشعراء: الآيات ٧٥-٨٢.

(٣) المرجع ذاته، ص١٠٥.

(٤) الكهف: ٦٤.

(٥) المرجع ذاته، ص١٠٦.

(٦) الخالدي، **نظرية التصوير الفني**، ص١٨٣.

(٧) قطب، **التصوير الفني**، ص١٠٥.

(٨) مريم: ٢-٤.

(٩) قطب، **التصوير الفني**، ص١٠٦.

فمن هنا نجد أن الايقاع الموسيقي يتناسق مع نظام الفاصلة القرآنية، فنظام الفاصلة يتنوع في السورة حسب طولها وتوسطها وقصرها، فنجدها قصيرة في السور القصار، ونجدها متوسطة أو طويلة في السورة المتوسطة أو السورة الطويلة. لذلك يأتي الايقاع الموسيقي متنوعاً متعدداً، تبعاً لتنوع نظام الفواصل القرآنية وهو مع تعدده متناسق متناسب[١].

والإيقاع يتعدد ويتنوع بتنوع الفاصلة حتى يأتي إيقاعاً فنياً متناسقاً[٢].

من هذا كله نستطيع أن نخرج بقاعدة مفادها أن القرآن الكريم جاء على شكل نظم قرآني مرتب حسب نظام فواصل قرآنية روعي فيها تناسق الايقاع الموسيقي مع الفاصلة والقافية. وهذا الأمر يمكن ملاحظته في سور القرآن المتعددة فقد نجد الفاصلة تتنوع في سورة واحدة وعندها فإن الايقاع الموسيقي يتنوع ليرتسم من خلالها صورة فنية متناسقة بين القافية والايقاع. وقد نجد السورة الواحدة على فاصلة أو قافية واحدة وعندها يكون الايقاع الموسيقي واحداً غير متعدد ليشكل مع نفس الصورة الفنية وحدة متناسقة.

ولأن العرب يمتازون برهافة الحس، "فهم يتأثرون أشد التأثر بما يسمعون، وللكلمة قدسيتها، وهي تفعل فعلها إلى أبعد مدى، ... وهم سيدركون القيمة الموسيقية في القرآن بسبب معايشتهم لفن الشعر والخطابة، واهتمامهم البالغ بالكلمة، وقد قال الزرقاني: "هذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي، هو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن، ولم تكن تمهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء أكان مرسلاً أم مسجوعاً، حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر"[٣].

---

(١) الخالدي، **نظرية التصوير الفني**، ص١٨٤.

(٢) المرجع ذاته، ص١٨٤-١٨٥.

(٣) ياسوف، **جماليات المفردة القرآنية**، ص٧٥.

"فموسيقا القرآن واضحة لكل نظر دقيق، وهي ذات هدف ديني جمالي معاً، فهي رمز هادف وفي القرآن نجد أن الموسيقى أداة طيعة في إبراز معاني الشدة والرحمة، التهديد والتلطف"[١]

لهذا نستطيع القول إن الايقاع الموسيقي في القرآن الكريم والذي تمثل في النظم القرآني، ومن خلال الفاصلة القرآنية وتناسقها مع الايقاع كان له أثر كبير في نفوس من يستمع القرآن الكريم، فالايقاع الموسيقي القرآني هو جزء من تأثير القرآن الكريم على النفس الإنسانية، وذلك عائد إلى أن الأذن السليمة تعشق الكلام المنظوم والذي يتسم بإيقاع أو نغم موسيقي يدخل إلى القلب مباشرة. فكان القرآن الكريم بنظمه وإيقاعه الموسيقي المعجز هو أكبر مؤثر في النفس وأكثر الإيقاعات دخولاً إلى القلب.

---

(١) المرجع ذاته، ص ص٩٤-٩٥. بتصرف.

المبحث الثالث: الأداء وعلاقته بإعجاز القرآن التأثيري:

عندما نتحدث عن الأداء فإننا لا نقصد أسلوب القرآن في الأداء، "فتعبير القرآن يستقيم على خصائص واحدة في مستوى واحد، لا يختلف ولا يتفاوت، ولا تختلف خصائصه، كما هي الحال في أعمال البشر"[١].

فالأداء القرآني امتاز عن الأداء البشري بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير، مع تناسق بين المدلول، والعبارة، والايقاع والظلال والجو، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن واحد، بحيث لا يجور الجمال على الدقة، ولا الدقة على الجمال.[٢]

فالأداء بهذه الصورة يعود إلى نظم القرآن الكريم، وقد بينت في المبحث الأول من هذا الفصل علاقة النظم بإعجاز القرآن التأثيري، فالأداء القرآني من هذه الناحية مرتبط ارتباطاً وثيقاً مع النظم القرآني، فكان الأداء القرآني متميزاً عن البشري، من حيث البناء التعبيري في اختيار أدق الألفاظ لأكبرِ كمٍ من المعاني والمدلولات.

إن حديثي في هذا المبحث يتناول الأداء القرآني وأقصد به ترتيل القرآن بطريقة معينة وذلك عن طريق إعطاء حقه في التلاوة من حيث مخارج حروفه وأحكام تلاوته، فإن القرآن الكريم يتميز عن أي نظم آخر بأنه الوحيد الذي لا يأتي جمال رونقه وإيقاعه إلا عن طريق تلاوته حق التلاوة.

وقد حث القرآن الكريم في أكثر من آية على تلاوة القرآن حق التلاوة فقال تعالى ﴿**أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا**﴾[٣] "أي بين القرآن إذا قرأته تبييناً،

(١) الخالدي، **نظرية التصوير الفني**، ص٣٠٨.

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، ج٣/ ص١٧٨٧.

(٣) المزمل: ٤.

وترسل فيه ترسلاً"[١] وقال الزمخشري: "ترتيل القرآن: قراءته على ترسل، وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: لا كسردكم هذا، لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها"[٢]. وهل الترتيل هنا معلق بقيام الليل أم بقراءة القرآن؟ الأولى أن يكون الأمر مستقلاً بقراءة القرآن، لأن القراءة في الصلاة تدخل في ذلك. وقد كان نزول هذه السورة (المزمل) في أول العهد بنزول القرآن فكان جملة القرآن حين نزول هذه السورة سورتين أو ثلاث سور بناء على أصح الأقوال. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ بمهل وتبيين[٣]. "والترتيل يوصف به الكلام إذا كان حسن التأليف بيّن الدلالة"[٤].

والأمر بالترتيل يجوز فيه المعنى (وأمرنا بترتيل قراءته) وذلك قوله تعالى ﴿**ورتل القرآن ترتيلا**﴾ أي اقرأه بترسل وتثبت[٥]. ويجوز أيضاً في الترتيل أن يكون حالة لنزول القرآن، أي نزلناه مفرقاً منسقاً في ألفاظه ومعانيه غير متراكم، فهو مفرق في الزمان فإذا كمل انزال سورة جاءت آياتها مرتبة متناسبة كأنها أنزلت جملة واحدة"[٦].

أما عن الحكمة من ترتيل القرآن ونزوله منجماً فقد بينها قوله تعالى ﴿**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا**﴾[٧].

---

(١) محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ج١٢، ص٢٨٠.

(٢) محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار الكتاب العربي، ج٤، ص٦٣٧.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص٢٦٠.

(٤) المرجع ذاته، ج١٩، ص٢٠.

(٥) الزمخشري، **الكشاف**، ج٣، ص٢٧٨.

(٦) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٩، ص٢٠.

(٧) الفرقان: ٣٢.

فالحكمة من إنزاله منجماً هي تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم "لأن تثبيت الفؤاد يقتضي كل ما به خير للنفس[١] والحكمة أيضاً "أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه؛ لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء وجزءاً عقيب جزء"[٢].

وقد كان هدف القرآن هو تربية الأمة وتنشئة المجتمع وإقامة النظام فيه "والتربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثير وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثير والانفعال إلى واقع. والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد. إنما تتأثر يوماً بعد يوم بطرف من هذا المنهج؛ وتتدرج في مراقيه رويداً رويداً، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً... ولقد حقق القرآن بمنهجه ذاك خوارق في تكييف تلك النفوس التي تلقته مرتلاً متتابعاً، وتأثرت به يوماً يوماً، وانطبعت به أثراً أثراً"[٣].

وقد ضمنت آيات القرآن الكريم أن يتاح للقارئ ترتيله ترتيلاً مرتباً ومتناسقاً بين لفظه وإيقاعه وأداء القارئ الصوتي.

"والأداء الصوتي وفق ما تهدى إليه علماء القراءات بالتطريب وترقيق بعض الحروف والعلو والانخفاض بالصوت أو التأني واختلاس الحرف نطقاً.."[٤] يعد جانباً من جوانب الدرس الاعجازي لم يضعه باحث في مكانه هنا. يقول سبحانه وتعالى ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾[٥] "فإن من بعض معاني هذه الآية الخصائص الصوتية المتاحة للفظ القرآني، والتي يحسها عملياً علماء القراءات"[٦].

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٩، ص١٩.

(٢) الزمخشري، **الكشاف**، ج٣، ص٢٧٨.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، ج٥، ص ص٢٥٦٢-٢٥٦٣. بتصرف.

(٤) مصطفى الصاوي الجويني، **جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني**، منشأة المعارف، الاسكندرية، ص ص١٢٣-١٢٤.

(٥) القمر: ١٧.

(٦) المرجع ذاته، ص١٢٣.

فالأداء الصوتي له أثر كبير في إعجاز القرآن سواء الاعجاز بمفهومه العام أم الاعجاز بمفهومه الذي نحن بصدده.

والأداء الصوتي يأتي كما أشرت بإعطاء الحرف حقه في التجويد "والتجويد ليس شيئاً إضافياً أو زركشة لتزيين كلمات القرآن، فهو إعطاء الحرف حقه في الأداء، وبما أن النسق القرآني فريد النوع، فقد كانت قواعد التجويد بالغة الأهمية، لأنها تبرز جمالاً سمعياً غير معهود"[١].

فاللتأني في تلاوة القرآن فضيلة المتعة السمعية، لهذا نجد أن القرآن قد حث على ترتيل القرآن ونجد في القرآن كذلك حضاً على جمال الأداء والذي تمثل في قوله تعالى ﴿**لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا**﴾[٢]. والترتيل هو ما يفوق الانشاد والقراءة العادية، ويسمو على مطِّ الغناء واضطرابه، وقد جاء الحض أيضاً في أوائل التنزيل على شكل فعل بالمفعول المطلق وذلك في قوله تعالى ﴿**أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا**﴾[٣] وهنا يختص الترتيل بزمن الليل زيادة في جماله في هدأة الليل، حيث صفاء النفس، وذلك لأن الله سبحانه عليم بأن السمع نافذة على النفس، وحافز على الانفعال والتفاعل مع متطلبات دينية حيوية وأخروية[٤].

وكما حض القرآن على جمال الأداء في أكثر من موقع فقد حض الرسول صلى الله عليه وسلم في أكثر من مناسبة على الأداء الحسن الذي يركز على الاحساس بالتشكيل الموسيقي في إيقاع القرآن.[٥]

---

(١) ياسوف، **جماليات المفردة القرآنية**، ص٧٧.

(٢) الفرقان: ٣٢.

(٣) المزمل: ٤.

(٤) ياسوف، **جماليات المفردة القرآنية**، ص٧٨. بتصرف.

(٥) المرجع ذاته، ص٧٨.

وقد رويت عدة أحايث منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة تبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما أذن * الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن"[١] وعنه أيضاً أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به"[٢]. وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن عبد الله بن قيس أو الأشعري أعطي مزماراً من مزامير آل داوود"[٣].

وعن شعبة عن معاوية بن قرة قال سمعت عبد الله بن مغفل المزني يقول: قرأ النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح في مسير له سورة الفتح على راحلته فرّجع[٤] في قراءته. قال معاوية لولا أني أخاف أن يجتمع عليّ الناس لحكيت لكم قراءته"[٥].

وعن البراء قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين (حبل طويل مضطرب) فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال: تلك السكينة تنزلت للقرآن"[٦].

---

* قال الامام النووي في شرح هذا الحديث: معنى أذن في اللغة الاستماع قالوا ولا يجوز أن تحمل هنا على الاستماع بمعنى الاصغاء فإنه يستحيل على الله تعالى بل هو مجاز ومعناه الكناية عن تقريبه القارئ وإجزال ثوابه لأن سماع الله تعالى لا يختلف فوجب تأويله" انظر مسلم بشرح النووي، ج٦، ص٧٨.

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم. انظر أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الطبعة الثانية، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٨، ج٨، ص٦٨٦، كتاب فضائل القرآن باب من لم يتغن بالقرآن حديث رقم ٥٠٢٣. وانظر صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتب العلمية، لبنان، ج٦، ص٧٨. كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، حديث رقم ٧٩٢.

(٢) مسلم، **كتاب صلاة المسافرين**، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، ج٦، ص٧٩، حديث رقم ٧٩٢.

(٣) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم انظر فتح الباري، ج٨، ص٧١٠. كتاب فضائل القرآن باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، حديث رقم ٥٠٤٨. وانظر صحيح مسلم، شرح النووي، ج٦، ص٨٠، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، حديث رقم ٧٩٣.

(٤) الترجيع هو تقارب ضروب الحركات في القراءة، وأصله الترديد، وترجيع الصوت ترديده في الحلق.

(٥) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، انظر الفتح، ج٨، ص٧١٠، حديث رقم ٥٠٤٧، وانظر مسلم ج٦، ص٨١، حديث رقم ٧٩٤.

(٦) رواه مسلم، انظر **صحيح مسلم**، ج٦، ص٨١، حديث رقم ٧٩٥.

فهذه الآثار وغيرها من الآثار تدل دلالة واضحة على مدح صاحب الصوت الحسن في القرآن الكريم، "وتدل دلالة واضحة على اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالأداء الحسن"[١]. وقد قال الامام أبو حامد الغزالي، رحمه الله "تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم، سنة"[٢] والتغني المقصود في الأحاديث السابقة "هو الترنم وترديد الألحان به"[٣] ويجب أن يكون هذا اللحن محكوماً بقوانين اللغة التي تساعد على إبراز النظم الموسيقي المعجز بحيث لا يصل التغني إلى مرتبة الغناء والإنشاد ولا يهبط إلى مرتبة القراءة، وإلى هذه المعيارية يشير الحديث النبوي: "اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الكتابين، وأهل الفسق، فإنه سيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية"[٤].

لذلك نرى أن الأحاديث والآثار قد حثت على ترتيل القرآن الكريم لما له أبلغ الأثر في النفس عند سماعه .يقول الإمام أبو حامد "واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر، فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القراءات يستحب له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيراً في القلب من الهذرقة والاستعجال"[٥].

وقد جاء في الأثر عن أبي موسى الأشعري لما علم أن الرسول صلى الله عليه وسلم امتدح صوته في تلاوته للقرآن قوله "لو علمت أن نبي الله صلى الله عليه وسلم يستمع لقراءتي حبرتها تحبيراً"[٦].

---

(١) ياسوف، **جماليات المفردة القرآنية**، ص٧٩.

(٢) محمد أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، الطبعة الثالثة، دار الخير، بيروت، ١٩٩٤م، ج١، ص٣٧٠.

(٣) المرجع ذاته، ص٣٧١.

(٤) ياسوف، **جماليات المفردة القرآنية**، ص٧٩. والحديث أخرجه أحمد الحسين البيهقي، **شعب الإيمان**، كما في السيوطي، **الجامع الصغير**، دار الفكر، بيروت، ج١، ص١٩٩.

(٥) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٦٧.

(٦) ذكر هذه الرواية الحافظ ابن حجر في فتح الباري فقال بعد ذكره الرواية فلما أصبح لقي أبو موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أبا موسى مررت بك، فذكر الحديث فقال: "أما أني لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيراً". انظر: **فتح الباري**، ج٨، ص٧١١.

فالآثار والأخبار في هذا الموضوع تؤيد ما ذهبنا إليه ويكفينا اكبر شاهد على ذلك قوله تعالى ﴿**وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا**﴾[١] فقد وضحت هذه الآية الهدف المرجو من تلاوته وترتيله والهدف المرجو من إنزاله مفرقاً هو "تربية الأمة وإقامة نظام لها، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها، وتعلم به البشرية وفق المنهج الكامل المتكامل... ولأن التربية تتم في الزمن الطويل، وبالتجربة العملية في الزمن الطويل، جاء القرآن ليكون منهجاً عملياً يتحقق جزءاً جزءاً في مرحلة الاعداد، لافقها نظرياً ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني"[٢].

"فتلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة تعطينا أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في حيز الشعور واستثارته ومن أعماق النفس، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي حتى إن الأعجمي يسمع ترتيل القران إن فهمه أو لم يفهمه إلا اعترته رقة للشجى والنظم، وأحس أن هذه الآيات تتموج في نفسه وتجيش نفسه بها مع أنه لا يعتريه من ذلك شيء إذا هو سمع الألحان العربية في الغناء والشعر"[٣].

لذلك فإن حسن الصوت إلى جانب النظم والايقاع الموسيقي يمثل صورة فنية رائعة الجمال ونستطيع أن نرى ذلك من خلال أداء قارئ متقن لكتاب الله سبحانه وتعالى قد أعطاه الله مزماراً من مزامير آل داود. وهو يتلو آيات الله فنراها تنساب من فمه قطعة موسيقية يعجز أكبر الملحنين وواضعي الكلمات على رسم قطعة مشابهة لها فتتلقاها القلوب خاشعة متأثرة يعتليها الروعة والوجل قبل أن تخشع لها الآذان.

---

(١) الاسراء: ١٠٦.

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، ج٤، ٢٢٥٣. بتصرف.

(٣) الرافعي، **إعجاز القرآن**، ص١٨٤. وانظر الهامش في نفس الصفحة.

وللتأكد من صحة أثر القرآن على سامعيه "فقد استعملت أجهزة المراقبة الالكترونية المزودة بالكمبيوتر لقياس أي تغييرات فسيولوجية عند عدد من المتطوعين الاصحاء أثناء استماعهم لتلاوات قرآنية.. وقد تم تسجيل وقياس أثر القرآن الكريم عند عدد من المسلمين المتحدثين بالعربية بالنسبة لغير المتحدثين بالعربية.. مسلمين كانوا أو غير مسلمين.. فقد تليت عليهم مقاطع من القرآن باللغة العربية، ثم تليت عليهم ترجمة هذه المقاطع باللغة الانجليزية. وفي كل هذه المجموعات أثبتت التجارب المبدئية وجود أثر مهدئ للقرآن بنسبة ٩٧٪ لديها.. وهذا الأثر ظهر في شكل تغيرات فسيولوجية تدل على تخفيض درجة توتر الجهاز العصبي التلقائي.. وعرضت تفاصيل هذه النتائج على المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطبية الاسلامية بأمريكا الشمالية"[١].

وأظهرت النتائج أن تأثير القرآن على التوتر يمكن أن يعزى إلى عاملين:

الأول: صوت القرآن الكريم في كلمات عربية، بغض النظر عما إذا كان المستمع قد فهمها أو لم يفهمها، وبغض النظر عن إيمان المستمع.

الثاني: هو معنى المقاطع القرآنية التي تليت حتى ولو كانت مقتصرة على الترجمة الانجليزية بدون الاستماع إلى الكلمات القرآنية باللغة العربية.[٢]

ولإعطاء نتائج أكثر في الدقة لمعرفة ما إذا كان أثر القرآن المهدئ للتوتر وما يصاحبه من تغيرات فسيولوجية عائداً للتلاوة القرآنية وليس لعوامل غير قرآنية مثل صوت أو رنة القراءة القرآنية العربية ... استعمل جهاز قياس درجة التوتر بالكمبيوتر ونوعه ميداك (٣٠٠٢) والذي ابتكره وطوره المركز الطبي بجامعة بوسطن. وهذا الجهاز يقيس ردود الفعل الدالة على التوتر

---

(١) محمد كامل عبد الصمد، **الاعجاز العلمي في الاسلام**، القرآن الكريم، الطبعة الثانية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣، ص٣٠٧.

(٢) المرجع ذاته، ص٣٠٧.

بوسيلتين: احداهما الفحص النفسي المباشر عن طريق الكمبيوتر.. والأخرى بمراقبة وقياس التغيرات الفسيولوجية في الجسد.[١]

وقد كانت النتائج بعد أن أجريت مائتان وعشر تجارب على خمسة متوطعين أصحاء: ثلاثة ذكور وانثيين أعمارهم بين ١٧-٤٠ سنة وكان المتطوعون جميعهم من غير المسلمين ومن غير الناطقين بالعربية، وقد أجريت هذه التجارب خلال ٤٢ جلسة علاجية تضمنت كل جلسة خمس تجارب بحيث تليت على المتطوعين تلاوات قرآنية باللغة العربية المجودة خلال ٨٥ تجربة، وتليت عليهم قراءات عربية غير قرآنية خلال ٨٥ تجربة أخرى ولم يستمع المتطوعون لأي قراءة خلال ٤٠ تجربة أخرى وقد روعي في جميع التجارب أن يكون المتطوعون جالسين جلسة مريحة ونفس الجلسة في جميع التجارب. فقد كانت النتائج أن الجلسات الصامتة التي لم يستمع فيها المتطوع لأية قراءات لم يكن لها أي تأثير مهدئ للتوتر، وكانت ٦٥٪ من تجارب القراءات القرآنية له تأثيره المهدئ للتوتر، في حين ظهر هذا الأثر في ٣٥٪ من تجارب القراءات غير القرآنية.[٢]

فيتضح بعد ذلك أن القراءة أو التلاوة القرآنية المتلوة بترتيل يعطى فيها حق مخارج الحروف وأصواتها وأحكام التلاوة فيها، لها أثر كبير في نفوس السامعين، فينتج من ذلك أن الأداء القرآني هو عامل أساسي في إعجاز القرآن التأثيري.

---

(١) المرجع ذاته، ص٣٠٧.

(٢) المرجع ذاته، ص ص٣٠٧-٣٠٩.

المبحث الرابع: معاني القرآن وعلاقتها بإعجاز القرآن التأثيري:

وقف علماء كثيرون عند معاني القرآن، وبينوا أهميتها وإن كان حديثهم أكثر عن اللفظ وتخير الألفاظ لمعاني مبتكرة، ومن ذلك ما نراه من الامام الباقلاني في أن القرآن الكريم كان معجزاً من جانب اختياره للألفاظ لمعاني مبتكرة وهذا أصعب من اختيار الألفاظ للمعاني المتداولة يقول الإمام الباقلاني: "إن ورود تلك المعاني التي يتضمنها (القرآن) في أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات في أصل الدين والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر... ويمنع ذلك أنه قد عُلم أن تخيّر الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب، من تخير الألفاظ لمعاني مبتكرة"[١] فالقرآن الكريم كان معجزاً عنده الى جانب الوجوه الأخرى المذكورة عنده[٢] من جهة تخيره الألفاظ للمعاني المبتكرة، فمعاني القرآن جديدة غير متداولة وغير مألوفة وهذا لا يمنع أن تكون سهلة خارجة عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر وعن الصنعة المتكلفة وجعله قريباً الى الأفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته الى النفس[٣].

ومعاني القرآن تدور حول العقيدة والتوحيد، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويتصل بذلك سائر العبادات من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وهناك جانب تشريعي قانوني يضمن الصلة وينظم العلاقة بين الفرد ومجتمعه، والمجتمع وكل فرد فيه، من الرجال والنساء على السواء[٤]. أي أن القرآن "تناول هذه الحياة، وسبلها، وغاياتها وواقع الناس فوقها، وما ينبغي أن يكونوا عليه من الصور المثالية التي ترفع من القدر، وتعلي من القيمة،

---

(١) الباقلاني، **اعجاز القرآن**، ص ص ٩٣-٩٤.

(٢) انظر الباقلاني، **اعجاز القرآن**، ص ص ٨٣-٩٩.

(٣) المرجع ذاته ص٩٨.

(٤) فتحي احمد عامر، **المعاني الثانية في الأسلوب القرآني**، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٧٦، ص٢١.

وألواناً من تاريخ البشرية في صراعها مع الرسل والأنبياء...، وتناول ما وراء الحياة من الموت والبعث والحساب والجزاء والجنة والنار لتتقابل صورة الروح وصورة المادة... لقد تناول القرآن الدنيا، كما تناول الآخرة، في معانٍ مصورة مرسومة شاخصة للعين، ولم يتناولها فكرة مجردة، لتظل ماثلة في الأذهان مطلة من العواطف تأخذ بزمام البشر إلى ما فيه سعادتهم واطمئنانهم وتخطط لهم مبادىء الحياة الكريمة المستقيمة،البعيدة من الاثم، المترفعة عن الدنايا"[١] .

وهذه المعاني لكل نوع منها لفظ يتناسب معه، لا يقوم مقامه لفظ آخر وفي هذا يقول الامام الجرجاني "اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ، هو به أخص وأولى، وضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى، ومأخذاً إذا أخذ منه كان الى الفهم أقرب، وبالقبول أخلق، وكان السمع له أوعى، والنفس إليه أميل"[٢]. لذلك كان لا بد من التناسق الفني بين المعاني والألفاظ وقد تبين ذلك عن طريق الإيقاع الموسيقي الذي ترسمه الألفاظ مع المعاني والتي تقوم على أساس النظم.

والسؤال الذي يحتاج الى الاجابة هو ما هي علاقة المعنى بالإعجاز التأثيري؟ وإذا كانت هناك علاقة بينهما فمن أين تبرز تلك العلاقة؟

والإجابة على هذين السؤالين لا يحتاج من الباحث كثيراً من الجهد، خاصة إذا عُرف أن هدف القرآن الكريم هو تربية النفس الإنسانية وتهذيبها، وهذا يعني أن القرآن الكريم في موضوعاته كلها موجه إلى الإنسان من جهة التربية، فموضوعات القرآن مقصودة، ولا ينحصر المعنى الظاهري منها لأول وهلة إلى جانب واحد، إنما هناك عدة معاني يمكن أن نستخلصها من هذه الموضوعات، فالجانب التشريعي الذي يتحدث عنه القرآن في آيات كثيرة وفي مواضع

---

(١) المرجع ذاته، ص ص ٢١-٢٢ بتصرف.

(٢) عبد القاهر الجرجاني، **الرسالة الشافية**، في ثلاث رسائل في الإعجاز، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر ١٩٦٨، ص١١٧.

متعددة في القرآن الكريم نرى من خلالها عدة جوانب منها الجانب التربوي، ومنها الجانب البياني الذي تحتويه تلك الآيات. فالقرآن الكريم عبارة عن وحدة كاملة، ذات مواضيع متعددة، لا ينفك موضوع عن الآخر.

لذلك نرى أن المعنى القرآني مرتبط ارتباطاً وثيقاً مع اللفظ القرآني كما هو اللفظ يرتبط مع بعضه عن طريق توخي معاني النحو ليكون بعدها وحدة تركيبية تقوم على أساس النظم. "إلا أن التعبير الفني لا يكتمل الا إذا توفرت فيه وحدة تناسقية عميقة، تربط المعاني بعضها ببعض، ليستجيب لها العقل، وتنساب إليها النفس، وتشعر أن التعبير الفني قد استطاع أن ينقل معاني النفس ومشاعرها بدقة وأمانة"(١).

"فالمعاني القرآنية المستفادة من التراكيب القرآنية تثير ألواناً متعددة من الدلالات البعيدة تهدف الى خلق النموذج المتكامل، والمجتمع الفاضل. وإذا كانت المعاني القريبة في كتاب الله بليغة، فالمعاني البعيدة أبلغ لكونها أكثر مطابقة لمقتضيات الأحوال لأن القرآن يعبر في صورة أدبية تثير المشاعر والإنفعالات، وتتخذ قرارها الى النفس، وأية فكرة من خلال هذا النسق المحكم، والنظم العجيب تراها بحكم التركيب الذي يشتمل عليها قد انتفضت بمعانٍ جديدة"(٢).

ولما كان القرآن الكريم آخر الرسالات السماوية، وجاء الخطاب فيها عاماً من الجهة الزمانية، فقد كان الخطاب موجهاً في العصر الأول من التنزيل إلى الفصحاء والبلغاء من قريش، ثم كان الخطاب في الفترة المدنية يركز على جوانب عدة منها مخاطبة أهل الكتاب، ثم ابراز جانب التشريع والأحكام والمعاملات ففهم المخاطبون به تلك المعاني في تلك المراحل.

---

(١) السلامي، **الإعجاز الفني في القرآن** ص١٧٣.

(٢) عامر، **المعاني الثانية في الاسلوب القرآني**، ص٣٢٦.

وبقي القرآن الكريم هو المعجزة التي وقع التحدي به فجاءت عصور فهمت منه الكثير من المعاني التي تحتملها الألفاظ فاستنبط منه كثير من العلماء المعاني الغزيرة التي تحتملها الألفاظ، وقد نظر العلماء المعاصرون في آيات القرآن نظراتٍ استنبطوا من خلالها معاني جديدة لم تكن قد برزت في تلك الأزمان. وهذه الصفة لا نجدها إلا في كتاب الله سبحانه وتعالى "وإن من أعجب ما يحقق الإعجاز أن معاني هذا الكتاب الكريم لو ألبست ألفاظاً أخرى من نفس العربية، ما جاءت في نمطها وسمتها والإبلاغ عن ذات المعنى إلا في حكم الترجمة ولو تولى ذلك أبلغ بلغائها حتى ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فقد ضاقت اللغة عنده على سعتها، حتى ليس فيها لمعانيه غير ألفاظه بأعيانها وتركيبها، ومتى كانت المعارضة والترجمة سواء إلا في المعجز الذي يساوي بين القوى في العجز وهي بعد في ذات بينها مختلفات؟"[١]

لذلك جاءت ألفاظ القرآن الكريم متناسقة فنياً، فاحكمْ أن الألفاظ أمسكت بزمام العبارة، ووضعت نفسها في الموضع الذي يجب أن تكون فيه، وأحكمَ التناسق بين أجزائها، وطبع صيغها بطابع الانسجام"[٢].

"إن القرآن يحرص -بحكم كون نزوله منجماً- أن يُتبع المعنى بالعبارة ترتيب المعاني بالنفس. يقول تعالى: ﴿**فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾[٣]... فإننا نرى في هذه الاية "التناسق بين المعاني في تسلسل فني حيث الوحدة الفنية التي أحكمت اجزاء العبارة، وتسلسلٍ نفسي: حيث استجابة التعبير لما يجول بالنفس" [٤].

---

(١) الرافعي، **إعجاز القرآن**، ص٢١١.

(٢) السلامي، **الإعجاز الفني في القرآن**، ص ص ١٧٤-١٧٥ بتصرف.

(٣) الأنعام: ٤٥.

(٤) السلامي، **الإعجاز الفني في القرآن** ص ص ١٧٤-١٧٥ بتصرف.

فاستئصال القوم الظالمين، يحدث ارتباطاً في نفوس المؤمنين المخلصين، "فقطع" ببنائها للمجهول، تفيد السرعة في محق دابرهم، وترفع النفس إلى الروح الإلهية، لتنقل شكرها وعرفانهاو إذا بها تردد: "والحمد لله رب العالمين"، فإضافة الرب للعالمين في هذه العبارة ، تؤجج النفس، لتصعد حرارتها إلى أوجها، ثم تنطفىء في بوتقة الإله، رب العالمين، الذي استطاع بجبروته محق دابر القوم الذين ظلموا.(١)

هذا التناسق في العبارة القرآنية بين اللفظ والمعنى له مهام من أهمها الوضوح والتأثير، وذلك بالربط ودقة التعقيب(٢). كما أن من مهام التناسق في المعنى أن يفيد التوكيد كما في قوله تعالى: ﴿**الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة، لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً**﴾(٣). فالآية تجمع بين توكيدين توكيد يتمثل في صيغة التعبير الفنية، وتوكيد تحققه العبارة نفسها"(٥).

فالتسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض هو صورة من صور التناسق الفني في القرآن الكريم(٦)، وهذا التسلسل يعد من بلاغة المعاني في أسلوب القرآن. فإننا نرى في لفظ من الألفاظ معنى، "ثم نرى كأن لهذا المعنى في التركيب معنى آخر، هو الذي يفيض على النفس ويتصل بها"(٧).

---

(١) انظر المرجع ذاته ص ص ١٧٤-١٧٥ بتصرف وفي هذا المعني يقول سيد قطب: "لقد أخذ الله قوم نوح وقوم هود... كما أخذ الفراعنة.. وغيرهم بهذه السّنة؛ ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها،.. ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة، وكان لها من التمكين في الأرض... ما لايقل عما تتمتع به اليوم أمم؛ مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع... هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنّة، ولا تشعر أن الله سبحانه وتعالى يستدرجها وفق هذه السنه... ولقد كنت وأنا في أمريكا أرى رأي العين مصداق قوله تعالى: ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء**﴾... كنت أرى هذا وأتوقع سنة الله وأكاد أرى خطواتها وهي تدب الى الغافلين ﴿**حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذ هم مبلسون، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾ انظر في ظلا ل القرآن جـ٢ ص ص١٠٩٠-١٠٩١ بتصرف.

(٢) انظر المرجع ذاته ص ١٨١ "ومثال ذلك قوله تعالى ﴿**أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيما**﴾ (الإسراء ٤٠) والتناسق يظهر من خلال التوكيد وتعقيبها شهادة إلهيه ﴿**إنكم لتقولون قولاً عظيماً**﴾ فالقول العظيم بكل ما في لفظة قول من نطق حقيقي.

(٣) النساء: ٨٧.

(٥) انظر السلامي، **الإعجاز الفني في القرآن**، ص ص ١٨٣-١٨٤.

(٦) انظر قطب، **التصوير الفني في القرآن**، ص ص ٨٧-٨٩.

(٧) الرافعي، **اعجاز القرآن**، ص٢١٠.

من خلال ذلك كله نستطيع أن نخلص إلى القول أن معاني القرآن إلى جانب لفظ القرآن تكون نظماً بديعاً متناسقاً بين المعنى الذهني واللفظ، فينتج عنه الإعجاز بجميع جوانبه، فإذا كان النظم هو توخي معاني النحو، فإن المعاني الذهنية هي جزء من النظم وكما ثبت في المبحث الأول من هذا الفصل الإعجاز للنظم وعلاقته بالإعجاز التأثيري، فإنه ثبت هنا علاقة المعاني القرآنية بالإعجاز وخاصة بإعجاز القرآن التأثيري.

والأمر الذي يبقى في هذا الباب هو هل ينطبق ذلك على ترجمة القرآن[١] إلى اللغات الأخرى؟

مما لا شك فيه أن ترجمة القرآن الكريم إلى لغات أخرى هي من الأمور الصعبة وذلك لأن شروط الترجمة[٢] التي اعتمدها العلماء لا تكاد تتوفر في الترجمة.

لذلك فإن العلماء "حرموا ترجمة القرآن الى اللغات، فإن الترجمة لا تؤديه البتة، ولو هي أدت معانيه كما يفهم أهل العصر، بقي منها ما ستفهمه العصور الأخرى. وأشهر وأدق ترجمة للقرآن في اللغة الفرنسية ترجمت فيه هذه الاية ﴿أحل لكم ليلةَ الصيامِ الرفثُ إلى نسائكم هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾[٣] فكانت الترجمة هكذا هن بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن... وكيف لعمري يمكن أن يترجم هذه الكتابة الدقيقة وجه من وجوه إعجاز القرآن للغات العالم كافة"[٤].

---

(١) عرّفوا الترجمة بنقل الكلام من لغة إلى أخرى/ انظر عبد الجليل عبد الرحيم لغة القرآن الكريم، الطبعة الأولى، مكتبة الرسالة، عمان ، ١٩٨١ ص ٥٣٤.

(٢) حدد العلماء الشروط بما يلي: ١- علم المترجم بأوضاع اللغتين في معانيها وحقيقتها ومجازها، وخصوصياتها. ٢- استوفاء الترجمة جميع معاني الأصل ومقاصده. ٣- أن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل بحيث يمكن الإستغناء عن الأصل/ انظر عبد الجليل، لغة القرآن ص٥٣٩.

(٣) البقرة: ١٨٧.

(٤) الرافعي، **إعجاز القرآن**، ص٢١١.

فالقرآن "يتخير من الألفاظ على درجات ليس معنى العجب فيها أن يقع التخير عليها، ولكن العجب أن تستجيب ألفاظه على هذا الوجه المعجز الذي لا يكون في اللغة الا عن قدرة هي عين القدرة التي ألهمت أهلها الوضع والتعبير وتشقيق الكلام، حتى حصلت لغتهم كاملة في كل ذلك. وأي معنى أعجب من أن تتجذبك معاني الوضع في ألفاظ القرآن فترى اللفظ قاراً في موضعه لأنه الأليق في النظم، ثم لأنه الأوسع في المعنى،... ولا مثل له إلا ما يتردد منه على لسان قارئه، وحتى خرج التعبير عن معانيه بألفاظ أخرى من نفس اللغة العربية مخرج الترجمة إلى غيرها من اللغات، إذا لم تحمل لغة من لغات الأرض حقيقة ما تعينه ألفاظه على تركيبها المعجز بل هو في ذلك يعجزها جميعاً ويخرج بها عن طوق أهلها وإن تساندوا فيه، وإنما هو جهد ما تبلغه تلك اللغات أن تجيء بشبه معانيه، قصداً في بعضها ومقاربة في بعضها مع الاستعانة بالشرح التي لا يتفق فيها أن تنقل من لغة إلى لغة"[١].

وقد تكون الترجمة مؤثرة إذا تليت على المسامع بطريقة هادئة كما حصل في التجارب المشار إليها في المبحث السابق والتي أجريت في الولايات المتحدة عندما تليت على بعض المسلمين ومن الذين لا يتحدثون العربية مقاطع من القرآن الكريم ومقاطع من الترجمة لنفس المقاطع وقد كانت النتائج أثبتت وجود أثر مهدئ للقرآن يعزى الى صوت القرآن الكريم في كلمات عربية ومعنى المقاطع القرآنية[٢].

إلا أن أكثر العلماء والذين قالوا بإعجاز القرآن الكريم من جهة معناه عرفوا ذلك الى تخير الألفاظ وتناسقها مع المعاني الذهنية في اللغة العربية وقد بين العلماء أن اللغات الأخرى لا تستطيع أن تعبر عن هذه المعاني بحيث تعطيها جميع التأويلات المحتملة لها.

---

(١) المرجع ذاته، ص ص ٢١٠-٢١١ بتصرف.

(٢) عبد الصمد، **الاعجاز العلمي في الإسلام**، ص٣٠٧.

فنخلص إلى القول أن ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغات غير العربية هو من باب التفسير وإعطاء المعاني المرادة من الآية في اللغة المترجم بها وهذا تأثيره على المستمع كما هو تأثيره على الذي يفهم معاني القرآن الكريم عند سماعه لها. فقد تؤدي الترجمة جانباً من جوانب التأثير وهو من جهة المعنى فقط.

المبحث الخامس: الموضوعات القرآنية وعلاقتها بإعجاز القرآن التأثيري:

بينت في المباحث الثلاثة من هذا الفصل تنوع النظم القرآني حسب المعاني الذهنية التي يطرحها القرآن، فكان النظم القرآني متعدداً حسب تلك المعاني، وكذلك بينت تنوع الإيقاع الموسيقي من خلال تناسق اللفظ مع المعنى فنجد أحيانا الايقاع القصير والذي تمثله الفاصلة القرآنية في قصار السور، ونجد الإيقاع الطويل والذي تمثله الفاصلة القرآنية في طوال السور، ثم بينت تعدد معاني القرآن الكريم، واحتمال الألفاظ لهذه المعاني، وسأحاول في هذا المبحث أن أبين أن في القرآن الكريم موضوعات متعددة، وأن هذه المواضيع التي جاء القرآن بها تتميز عن بعضها من حيث التأثير، فالقرآن المكي بموضوعاته هو غير المدني، حتى إن الاسلوب البياني في القرآن المكي غيره في القرآن المدني.

وقد أشار بعض العلماء الى هذا الجانب أقصد جانب تأثير القرآن المكي، فقد عزوا إسلام الصحابة في العهد المكي الى تأثرهم بالقرآن الكريم، وهذا خلاف من أسلم في الفترة المدنية، فقد كان إلى جانب القرآن الكريم كان هناك التشريع الدقيق والاخبار بالغيب والعلوم الكونية وغيرها. يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله: "إن هذه السور القلائل قد سُحر العرب بها منذ اللحظة الأولى، وفي وقت لم يكن التشريع المحكم ، ولا الأغراض الكبرى، هي التي تستدعي احساسهم، وتستحق منهم الإعجاب، ... وإذا حسب الأثر في اسلام المسلمين، فهذه السور الأولى تفوز منه بالنصيب الأوفى، مهما يكن عدد المسلمين من القلة في ذاك الآوان. ذلك أنهم إذ ذاك تأثروا بهذا القرآن وحده -على الأغلب- فآمنوا. أما الكثرة الكثيرة التي أسلمت بعد أن ظهر المسلمون، وبعد أن غلب الدين، فقد كان أمامها بجانب القرآن عوامل يتأثر بها من يسلمون، كل على طريقته، وكل وما ركب في طبيعته"[1].

---

(١) قطب، **التصوير الفني في القرآن**، ص١٧ بتصرف.

وقد تميز هذا التأثير في القرآن المكي في كثير من السور والمواقف فنجده في قمة التأثير على النفس عندما يجيب عن التساؤل الذي تطرحه النفس عن مصيرها يوم القيامة من مثل قوله تعالى: ﴿**فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه، إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه، فهو في عيشة راضية، في جنة عالية، قطوفها دانية، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه، يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه، خذوه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين، لا يأكله إلا الخاطئون**﴾[1].

نجد في هذه الآيات الإجابة على التساؤل الداخلي في النفس الإنسانية، فيضع أمامها الحقائق في يسر وسهولة وتأثير بالغ، فتطمئن إلى ما تعمله إن خيراً، فموت، ثم بعث، ثم حساب، ثم جنة. وإن كان شراً، فموت، ثم بعث، ثم حساب، ثم نار. إنها حقائق خالية من التعقيد الفلسفي، تجعل القلب يطمئن في هدوء إلى ربه"[2].

فالذي يأخذ كتابه، ما إن يؤتى به بيمينه حتى يطمئن إلى ما ينتظره ذلك أنه كان يظن أنه سيحاسب وتمثل ذلك في قوله تعالى: ﴿**إني ظننت أني ملاق حسابيه**﴾ فالظن جعله يعمل لمثل هذا اليوم فوجد حساباً يسيراً وعيشة راضية، وأما إن أوتي كتابه بشماله فقد عرف أيضاً مصيره، وذلك واضح من تمنيه أنه لم يؤت كتابه، لأنه علم من الاطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب.

---

(١) الحاقة: ١٩-٣٧.

(٢) محمد عطا أحمد يوسف، **الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم**، الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد السادس والثلاثون، ١٩٩٨، ص ص٥٠-٥١.

فالناظر في القرآن المكي والمدني يجد أن "لكل منهما طابعاً مميزاً وطعماً خاصاً"[١]. وكل منهما يعالج موضوعات معينة، فالقرآن المكي يعالج في الغالب "إنشاء العقيدة: في الله وفي الوحي، وفي اليوم الآخر. وإنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه. والتعريف بالخالق تعريفاً يجعل الشعور به حياً في القلب، مؤثراً موجهاً موحياً بالمشاعر اللائقة بعبد يتجه إلى رب، وبالأدب الذي يلزمه العبد مع الرب..."[٢].

والقرآن المدني يعالج في -الغالب- "تطبيق تلك العقيدة وذاك التصور وهذه الموازين في الحياة الواقعية؛ وحمل النفوس على الاضطلاع بأمانة العقيدة والشريعة في معترك الحياة، والنهوض بتكاليفها في عالم الضمير وعالم الظاهر سواء"[٣].

وقد ضرب القرآن المدني مثلاً عظيماً عن شدة تأثير أهل الكتاب بالقرآن الكريم وهم ممن أوتوا العلم في دينهم فما أن سمعوا القرآن الكريم حتى فاضت أعينهم من الدمع وقد صور لنا القرآن حالتهم فقال تعالى: ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**﴾[٤] وما وصفه القرآن بهذا الوصف أي النصارى إلا لأن في قلوبهم رأفة ورحمة ﴿**وجعلنا في قلوب الذين اتبعوا رأفة ورحمة ورهبانية**﴾[٥] فهذا حال قوم من أهل الكتاب فما هو حال المؤمنين من أهل القرآن ؟!.

---

(١) قطب، في ظلال القرآن، جـ٦ ص٣٦٢٨.

(٢) المرجع ذاته، جـ٦ ص٣٦٢٨.

(٣) المرجع ذاته، جـ٦ ص ص٣٦٢٨-٣٦٢٩.

(٤) المائدة: ٨٢-٨٣.

(٥) الحديد: ٥٧.

"ومع هذا الاختلاف الرئيسي في الموضوع بين المكي والمدني... مراحل وتدرج هنا وهناك، واختلاف -في ذلك كله- في الأسلوب والحلية والشكل بما يناسب كل موضوع من المواضيع، وكل مرحلة من المراحل"[١].

فالقرآن المكي له موضوعاته الخاصة التي انفرد بها -في الغالب- عن المدني وهذا جعل القرآن المكي يفترق عن المدني في الناحية الأسلوبية والبيانية فنجد في الآيات المكية "قصر الآيات والسور وإيجازها، وحرارة تعبيرها، وتجانسها الصوتي البارز، أو الذي يظهر للسامع من الوهلة الأولى"[٢] وكذلك نجد في القرآن المكي السجع أو الفاصلة القرآنية وقصرها وتناسبها مع المواقف المعروضة، ونجد فيه التخييل الحسي والتجسيم، وهذا كله بخلاف القرآن المدني الذي يغلب على آياته الطول في أكثر السور والآيات وإطنابها، وأسلوبها في التشريع الهادىء، وأما فواصلها فرخيّة مسترسلة[٣].

والناظر في هذه الفروق يجد أن أغلب الخصائص الفنية والتي تميز بها القرآن المكي هي الأكثر تأثيراً في النفس وهذا عائد كما أشرت إلى موضوعات القرآن المكي فمعلوم "أن لكل موضوع حليته اللفظية التي تناسبه والتي قد لا تناسب موضوعاً آخر، ولم يقل أحد إن الحماسة والوصف والغزل والرثاء تؤدى كلها في قالب واحد، وأن ما يصلح من الألفاظ والتركيب يصلح للثاني أو الثالث[٤].

ونحن بهذا لا ننفي تأثير القرآن المدني في النفس الإنسانية، بل على العكس من ذلك فالآيات المدنية بتشريعها المحكم وأحكامها الدقيقة كانت تؤدي

---

(١) زرزور، علوم القرآن، ص١٣٦.

(٢) المرجع ذاته، ص ١٤٤.

(٣) المرجع ذاته، ص١٤٣-١٤٤.

(٤) المرجع ذاته ص ١٤٤.

مرحلة قد لا يؤديها الأسلوب المكي الذي نزل به القرآن المكي. فالمرحلة المدنية لها خصائصها الخاصة بها كما أن للمرحلة المكية خصائصها الخاصة بها.

إلا أن طابع الإنسان أن يتأثر بموضوعات أكثر من أخرى فالموضوعات المكية أكثر تأثيراً من الموضوعات المدنية، وقد وجدنا في السيرة النبوية من المواقف التي تشير إلى تأثر قريش بالقرآن الكريم في كثير من المواقف، فموقف الوليدبن المغيرة عندما سمع شيئاً من القرآن وقوله "إن لقوله لحلاوة. وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى" وقصة اسلام عمر رضي الله عنه ليست ببعيدة عن مسامعنا[١].

والهدف من اختلاف الاسلوب البياني في الفترتين هو تربية الوازع الديني عن طريق تحقيق الايمان قبل التشريع، فقد اعتنى القرآن الكريم في الفترة المكية بتربية الوازع الديني "أساساً يبنى عليه غيره مدعوماً بالترغيب والترهيب وإن القسم المكي الذي يمثل نسبة ثلاثة أخماس القرآن الكريم على الأقل يكاد يخلو من التشريع، لأنه كان ينصب أساساً على التعريف بالله تعالى والدعوة الى الايمان به واخلاص العبودية له دون غيره، مع البرهنة على حقيقة البعث بعد الموت بشتى وسائل الإيضاح"[٢].

وقد ثبت أن القرآن الكريم في الفترة المكية قد عالج مواضيع الإيمان بالله سبحانه وتعالى أو بمفهوم أعم قد تحدث عن جانب العقيدة وذلك يعطينا أن القرآن في تلك الفترة قد استخدم أساليب معينة في مخاطبة الناس وأسلوباً معيناً في اقناعهم بمبادئه ومن هذه الأساليب:[٣]

---

(١) سأفرد في الفصل الثالث- إن شاء الله- مبحثاً خاصا عن النماذج التي وردت في السيرة النبوية عن تأثر المسلمين بالقرآن والكافرين على السواء.

(٢) جلو، **أساليب التشويق والتعزيز في القرآن**، ص١٩٢.

(٣) انظر محمد نبيل طاهر العمري، **أساليب اثبات العقيدة في ضوء تقسيمات القرآن**، بحث غير منشور. ص٦.

الموعظة الحسنة: وهي الكلمة الطيبة تخرج من فم الداعية لتصل إلى عقول الناس فيجدون فيها الخير والسعادة. والغاية منها تقريب الناس وعدم ابعادهم ومداواتهم وعدم جرحهم واصلاحهم لا افسادهم. وهي نوعان ترهيب وترغيب، ولكل منهما مجاله ومكانه.

وإننا نجد ذلك الاسلوب أعني أسلوب الترغيب والترهيب كثيراً في الآيات القرآنية، وقد يكون هذا الأسلوب من أكثر أساليب القرآن الكريم في التأثير، لما فيه من ضبط للسلوك الإنساني.

وقد جاءت آيات كثيرة في الترغيب والترهيب في عدة أساليب منها على سبيل المثال تعليق الثواب على شرط من مثل قوله تعالى: ﴿**وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم**﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد**﴾[٢]. وغيرها من الآيات[٣]. وقد جاء أيضاً بأسلوب الطلب أو موضوعه بما يهم الفرد مثل قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾[٤] وغيرها من الأساليب القرآنية*

وإذا ما نظرنا في آيات القرآن الكريم من هذا النوع نجد أنها تخاطب قوماً معينين، أقرب في تفكيرهم إلى الفطرة بما فيها من سلاسة وسذاجة، وبما فيها من براءة، وبساطة[٥].

---

(١) آل عمران: ١٧٩.

(٢) ابراهيم: ٧.

(٣) جلو، **أساليب التشويق والتعزيز في القرآن**، ص٢٠٩.

(٤) الأنفال: ٢٤.

* للإطلاع على هذه الأساليب يمكن الرجوع إلى أساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم ص ٢٠٧-٢٣١.

(٥) العمري، **أساليب اثبات العقيدة في ضوء تقسيمات القرآن الكريم**، ص٨.

ومن الأساليب الأخرى المتبعة في اقناع الناس الحكمة وهي الدعوة الى الحق بالحكمة البرهانية والأدلة القطعية[١]. وتختلف الحكمة عن الموعظة الحسنة من حيث المخاطبين بها؛ فالمخاطبون بها لا ينطبق الوصف الا على صنفين من الناس هم العلماء الذين توصلوا الى الايمان بما أوتوا من عقل منير والحكماء الذين نظروا في هذا الكون نظرة مجردة وصاغوا مقدمات برهانية أوصلتهم الى حقيقة كبرى هي أن لهذا الكون موجداً[٢].

أما آخر الاساليب المتبعة في اقناع الناس فهو المجادلة بالتي هي أحسن فقد استخدم القرآن هذا الاسلوب في اثبات العقيدة وهو ما يعبر عنه بالمناقشة او المناظرة أو المحاورة[٣].

وهذه الاساليب هي التي دل عليها قوله تعالى: **﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾**[٤].

لذلك نجد الموضوعات القرآنية تتميز عن غيرها في التأثير، فمواضيع الإيمان والعقيدة استخدمت الآيات فيها أساليب -مثل اسلوب الترغيب والترهيب المشار إليه سابقاً- معينة تتلائم مع مضمون هذه المواضيع فكان التأثير فيها أكثر من المواضيع الأخرى.

فنستطيع بعد ذلك أن نخلص الى القول أن الموضوعات التي طرحها القرآن تتميز بعضها عن بعض في التأثير فالقرآن المكي أشد تأثيراً من القرآن المدني وكذلك الموضوعات التي ذكرها القرآن جاءت متميزة فالموضوعات التي تحدثت عن الجنة والنار أشد تأثيراً من الموضوعات التي تتحدث عن التشريع

---

(١) المرجع ذاته، ص١٦.

(٢) انظر المرجع ذاته، ص ص ١٧-٢٣.

(٣) المرجع ذاته، ص٣٢.

(٤) النحل: ١٢٥.

فلذلك جاء الأسلوب القرآني في هذه المواضيع بما يتلائم مع هذه المواضيع فاستخدم القرآن اسلوب الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن في إثبات العقيدة ولم يستخدم هذه الأساليب في الموضوعات الأخرى.

من خلال ذلك كله نستطيع القول أن النظم القرآني، والإيقاع، والمعنى، والأداء، والموضوعات، هي مكمن إعجاز القرآن التأثيري؛ وأنها مجتمعة تعد وجهاً من أوجه الإعجاز البياني في القرآن الكريم؛ وعليه فيكون إعجاز القرآن التأثيري وجهاً من أوجه الإعجاز البياني.

الفصل الثالث

مظاهر تأثير القرآن الكريم في مستمعيه

تمهيد:

بينت في الفصل السابق مكمن الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم، وقد وضح أن الإعجاز التأثيري يكمن في النظم القرآني إلى جانب الايقاع، والأداء، والمعاني والموضوعات القرآنية، وأن هذه العوامل مجتمعة تؤدي في قلوب السامعين ما لا يؤديه أفصح كلام وأبلغه.

ولقد كان لهذا الأمر أكبر الأثر في نفوس المستعمين للقران الكريم، وقد ظهر ذلك في عدة مظاهر، من أهمها: أن بعض المستعمين ما إن سمعوا آيات من القرآن إلا ونقلهم إلى عالم الإيمان الرحب، وأن فئة أخرى عندما سمعته عاندت وبقيت في غيها، إلا أن ذلك لم يمنعها من الاستماع إلى القرآن الكريم خلسة أو خفية. وإلى جانب هاتين الفئتين من الناس فإن هناك فئة أخرى خشيت على أتباعها من نفوذ القرآن وسيطرته على القلوب فحثتهم على عدم الاستماع إلى هذا القرآن.

هذه المظاهر استوجبت من الباحث وقفة تحتاج إلى مزيد بيان حول مظاهر تأثير القرآن في الناس أو في المخاطبين به فكان هذا الفصل مقسماً على النحو الآتي:

المبحث الأول: مظاهر تأثير القرآن الكريم في الناس

المطلب الأول: مظاهر تأثير القرآن في المؤمنين

المطلب الثاني: مظاهر تأثير القرآن في الكافرين

المبحث الثاني: مظاهر تأثير القرآن الكريم في الجن

المبحث الثالث: تأثير القرآن الكريم في نفوس المستمعين من غير العرب

المطلب الأول: تأثير القرآن في غير العرب في عصر التنزيل

المطلب الثاني: تأثير القرآن في غير العرب بعد عصر التنزيل

المبحث الأول: مظاهر تأثير القرآن الكريم في الناس.

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم له أثره العظيم في نفوس الناس، سواء كان ذلك من المؤمنين الذين آمنوا به، أو من الكافرين الذين بقوا في عنادهم ولم يؤمنوا به. وقد دلت الآثار والأخبار على أن الناس قد تأثروا بالقرآن الكريم، وكان التأثير به ذا اتجاهين: اتجاه قاد صاحبه إلى الإيمان به وهم المؤمنون وقد ظهرت عدة مظاهر عليهم جراء الإيمان به واتجاه آخر تأثر به ولكن العناد كان سبيله أقوى من التأثر به، إلا أن ذلك لم يمنع من أن تظهر مظاهر على هذا الاتجاه دلت على تأثره بالقرآن الكريم.

من خلال هذه المقدمة البسيطة نستطيع أن نبين مظاهر التأثر على الناس من خلال المطلبين التاليين:

المطلب الأول: مظاهر تأثير القرآن الكريم في المؤمنين

المطلب الثاني: مظاهر تأثير القرآن في الكافرين

المطلب الأول: مظاهر تأثير القرآن الكريم في المؤمنين

لقد ثبت في الفصول السابقة أن من أهداف القرآن الكريم هو تربية الفرد والمجتمع على حد سواء، وأن القرآن الكريم قد استخدم عدة أساليب في التربية، وقد كانت أهم أساليبه هو تأثير القرآن في نفوس المستمعين من الناس، حتى إذا استمعوا للقرآن للوهلة الأولى دخل في قلوبهم وأدى ذلك إلى دخولهم في الإسلام والإيمان.

وقد أثر القرآن الكريم في نفوس مستمعيه من المؤمنين أكبر الأثر فإن روعة القرآن وهيبته وتلاوة القرآن ما زالت تولي المؤمن انجذاباً، "وتكسبه هشاشة[١] لميل قلبه إليه، وتصديقه به"[٢].

---

(١) هشاشة: أي مسرة وخفة ولين.

(٢) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ج١، ص٢٤٢.

"وهذه الروعة قد اعترف بها جماعة قبل الإسلام وبعده؛ فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن به، ومنهم من كفر؛ فحكى في الصحيح عن جبير بن مطعم، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب: والطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون**﴾[١]... إلى قوله «المصيطرون» كاد قلبي أن يطير. وفي رواية: وذلك أول ما دخل الإيمان قلبي"[٢].

وإن كان المظهر الأول من مظاهر تأثير القرآن في نفوس الناس هو الإيمان به، فإن هناك مظاهر عديدة تظهر على المؤمنين من خلال سماعهم أو تلاوتهم للقرآن الكريم. وهذه المظاهر نستطيع أن نجملها بالنقاط التالية:

أولاً: ما يلحق بهم من مهابة وروعة جراء استماعهم للقرآن الكريم فقد دل على هذا المعنى قوله تعالى ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**﴾[٣].

فالاستماع للقرآن الكريم يولد قشعريرة عند المؤمنين تجعل جلودهم "تقشعر من سماعه إذا تلي عليهم"[٤]. وهذا المظهر كثيراً ما ورد في السيرة من وقائع تدل على تأثر الصحابة رضوان الله عليهم بالقرآن الكريم لمجرد استماعهم إليه. بل إن الأمر أكبر من ذلك فقد جاء في الروايات الصحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه عندما سمع القرآن الكريم بكى وذرفت عيناه صلى الله عليه وسلم، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه "عن عبد الله بن مسعود قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم إقرأ عليّ القرآن. قال فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل. قال إني أشتهي أن أسمعه من غيري فقرأت النساء حتى إذا بلغت ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**﴾ رفعت رأسي أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل"[٥]

(١) الطور: ٣٥.

(٢) السيوطي، **معترك الأقران**، ص ص٢٤٢-٢٤٣.

(٣) الزمر: ٢٣.

(٤) الطبري، **جامع البيان**، ج١٠، ص٦٢٩.

(٥) رواه مسلم انظر مسلم بشرح النووي، ج٦، ص٨٧، حديث رقم (٨٠٠). وفي البخاري قال: حسبك الآن فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان." حديث رقم ٥٠٥١.

وقد دل هذا الحديث على عدة فوائد من أهمها "استحباب استماع القراءة والاصغاء لها والبكاء عندها وتدبرها واستحباب طلب القراءة من غيره ليستمع له وهو أبلغ في التفهم والتدبر من قراءته بنفسه"[١].

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه "أنه خرج يعس بالمدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: (والطور.. حتى بلغ: إن عذاب ربك لواقع، ما له من دافع) قال: قسم ورب الكعبة حق. فنزل عن حماره. واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه. رضي الله عنه"[٢].

فقد وصلت إلى عمر هذه الآيات عندما "صادفت منه قلباً مكشوفاً، وحساً مفتوحاً، فنفذت إليه وفعلت به هذا الذي فعلت. حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وحقيقتها اللدنية المباشرة؛ التي تصل إلى القلوب في لحظات خاصة، فتتخللها وتتعمقها، في لمسة مباشرة"[٣].

ثانياً: ما يلحق بهم من خشوع عند تلاوته وتدبر معانيه وهذا ما دل عليه قوله تعالى ﴿**لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشيه الله**﴾[٤] "واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني منفتحاً لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازاً ويرتجف ارتجافاً"[٥] والخشوع هو "التطأطؤ والركوع"[٦] والتصدع هو "التشقق"[٧] "وضرب التصدع مثلاً لشدة الانفعال والتأثر لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنشق وتتصدع إذ لا يحصل ذلك لها

---

(١) المرجع ذاته، ص٨٨.

(٢) انظر قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٣٩٤.

(٣) المرجع ذاته، ج٦، ص٣٣٩٤.

(٤) الحشر: ٢١.

(٥) قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٥٣٢.

(٦) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٨، ص١١٧.

(٧) المرجع ذاته، ج٢٨، ص١١٧.

بسهولة"[١] وهذه الخاصية أقصد خاصية الخشوع قد خصها الله سبحانه وتعالى في كتابه عن سائر الكتب والكلام حتى "أنه يعتري من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره، كما روي عن نصراني أنه مرّ بقارئ فوقف يبكي فقيل له: مم بكيت. قال للشجا (الحزن الذي أصابه من استماعه للقرآن) والنظم"[٢].

ثالثاً: التنافس بين المؤمنين على حفظه والعمل به وتنفيذ تعاليمه في كل شأن من شؤونهم فما أن تنزل آية حتى يتعاهدوها فيحفظوها ويتنافسوا في تطبيقها مباشرة بل إن بعض الصحابة رضوان الله عليهم كانوا لا ينتقلون من آية إلى أخرى حتى يطبقوها تطبيقاً عملياً. وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنه قوله "لقد عشنا دهراً طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها. ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل[٣]"[٤]. فكان الصحابة رضوان الله عليهم لا ينتقل من موضع إلى آخر حتى يطبقها فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله "كنا نحفظ العشر آيات فلا ننتقل إلى ما بعدها حتى نعمل بهن" وروي عنه أنه حفظ سورة البقرة في تسع سنين وذلك ليس للإنشغال عن الحفظ أو رداءة الفهم ولكن بسبب التدقيق والتطبيق" وروي عن ابن مسعود قوله "إنا صعب علينا حفظ الفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإنّ مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به"[٥].

---

(١) المرجع ذاته، ج٢٨، ص١١٦.

(٢) القاضي عياض، **الشفا**، ج١، ص٥٣.

(٣) الدقل: هو التمر الردي.

(٤) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج١، ص١٠٠، وقال عن الحديث رواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين.

(٥) انظر هذه الأقوال. أبو عبد الرحمن، كيف تتأثر بالقرآن وكيف تحفظه؟ الطبعة الثانية، الخبر، ١٤١٢هـ، ص ص٢٠-٢٢.

هذه بعض أبرز مظاهر تأثير القرآن في المومنين وكيف جعلهم يتنافسون في تلقيه وحفظه وتطبيقه.

ومما يمكننا إضافته في هذا الجانب:

١- قوله تعالى ﴿**أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً**﴾[١]. أي إذا سمعوا كلام الله سبحانه وتعالى والمتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا خضوعاً واستكانة، حمداًوشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبُكي جمع باك فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم.[٢]

وقد قرأ عمر بن الخطاب سورة مريم فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكي؟ يريد فأين البكاء.[٣]

فهم عندما سمعوا آيات الرحمن سواء الأنبياء أم الذين معهم من الصالحين سجدوا لله باكين، فهم أتقياء، شديدوا الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليه آياته، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع، ويخرون سجداً وبكياً.[٤]

إن هذا التأثير ناتج عن دخول القرآن إلى أعمق ما في وجدانهم فحرك المشاعر فجعلهم يخرون ساجدين لله سبحانه وتعالى من شدة تأثرهم بكلامه.

٢- قوله تعالى ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾[٥] وقد وقفت مع هذه الآية من

---

(١) مريم: ٥٨.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج٣/ص١٣٤.

(٣) الطبري، جامع البيان ج٨، ص٣٥٤.

(٤) انظر في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٣١٤.

(٥) الأنفال: ٢.

قبل[١] وقد دل على أن نتيجة التأثر كانت واضحة جلية في سلوك المؤمنين ونهج حياتهم، فهم ﴿على ربهم يتوكلون﴾ فهم لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه فالمؤمن هو الذي إذا ذكر الله وجل قلبه وانقاد لأمره وخضع لذكره وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدّق بها، وأيقن أنها من عند الله، فازداد بتصديقه بذلك، إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك تصديقاً.[٢]

٣- قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[٣] وهذه الآية تتحدث عن مرحلة اطمئنان القلوب والتي تأتي بعد إيمان عميق وسماع واع وتدبر للقرآن دقيق فإذا عاشت القلوب على هذا المنوال تصل إلى مرحلة من الاطمئنان إلى وعد الله في كتابه يقول الزمخشري «وتطمئن قلوبهم بذكر الله» بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته، أو تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وثبت اليقين فيها.[٤]

لقد قاد القرآن الكريم النفس الانسانية إلى الاطمئنان وذلك عن طريق الاجابة عن كثير من التساؤلات فقد أجاب القرآن الكريم عن مصير الإنسان بعد الحياة وبين أنه في أحد مصيرين أما الجنة أو النار. قال تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾[٥] وقال ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله﴾[٦] وقد جعل لكل صنف مصيراً فكان للأول ﴿فهو في عيشة راضية﴾[٧] وكان للثاني ﴿ثم الجحيم صلوه﴾[٨] وقد قاد النفس أيضاً إلى الاطمئنان عن طريق تطمينها على رزقها فقال تعالى ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون فوربّ السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم

---

(١) انظر ص٨٠-٨١.

(٢) انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٢٩٧. والطبري، جامع البيان، ج٦، ص١٧٨.

(٣) الرعد: ٢٨.

(٤) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٥٢٨.

(٥) الحاقة: ١٩.

(٦) الحاقة: ٢٥.

(٧) الحاقة: ٢١.

(٨) الحاقة: ٣١.

تنطقون﴾[١] كما قادها إلى الاطمئنان عن طريق الإجابة عن تساؤلات كثيرة ذكرها القرآن الكريم فكان الإنسان إذا ذكر الله اطمئن قلبه ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ فاكسب النفس الإنسانية هدوءاً وسكينة وترك فيها آثاره.[٢]

٤- قوله تعالى: ﴿**إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون**﴾[٣].

أي إنما يصدق بآياتنا الذين إذا ذكروا بها عن طريق الاستماع لها وطاعتها قولاً ومثلاً تراهم خروا سجداً معبرين عن شعورهم باتباعها والانقياد لها، تاركين النوم قائمين داعين ربهم خوفاً من وبال عقابه، طمعاً في جزيل ثوابه ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ جامعين بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ومقدم هؤلاء وسيدهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.[٤]

وقد دلت صيغة المضارع في ﴿**إنما يؤمن**﴾ لما تشعر به من أنهم يتجددون في الإيمان ويزدادون يقيناً وقتاً فوقتاً، وإلا فإن المؤمنين قد حصل إيمانهم فيما مضى ففعل المضي آثرُ بحكاية حالهم في الكلام المتداول لولا هذه الخصوصية، ولهذا عرفوا بالموصولية والصلة الدال معناها على أنهم راسخون في الإيمان، فعبر عن إبلاغهم آيات القرآن وتلاوتها على أسماعهم بالتذكير المقتضي أن ما تتضمنه الآيات حقائق مقررة عندهم لا يُفادون بها فائدة لم تكن حاصلة في نفوسهم ولكنها تكسبهم تذكيراً «فإن الذكرى تنفع المؤمنين»[٥].

---

(١) الذاريات: ٢٢-٢٣.

(٢) انظر من عطا أحمد سيف، **الاعجاز التأثيري للقرآن**، ص ص٥٠-٥١ بتصرف.

(٣) السجدة: ١٥-١٦.

(٤) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٣، ص ص٤٦٧-٤٦٨.

(٥) انظر ابن عاشور **التحرير والتنوير**، ج٢١، ص٢٢٧، بتصرف.

تلك هي مظاهر التأثير عند المؤمنين سجود سريع وتواضع واستكانة، وقيام في الليل، يخافون العذاب، ويطمعون في الثواب وهذا كله من القرآن الكريم الذي دخل وجدانهم فحرك مشاعرهم ففاضت أعينهم من الدمع.

المطلب الثاني: مظاهر تأثير القرآن في الكافرين.

جاء الخطاب القرآني موجهاً إلى جميع أصناف الناس دون استثناء بين القرآن الكريم ذلك في عدة أساليب منها خطابه يا أيها الناس وخطابه الموجه لأهل الكتاب من مثل قوله تعالى ﴿**يا أهل الكتاب**﴾ وهذه الأساليب وغيرها كان لها أثر كبير في نفوس المستمعين وإن أدى ذلك إلى عدم الإيمان من كثير من الكافرين إلا أن القرآن الكريم والسيرة النبوية قد أثبتت لنا تأثر هؤلاء بالقرآن الكريم وذلك في عدة مظاهر من أهمها:

أولاً: الاستماع للقرآن الكريم خفية وخلسة، والاستماع هذا لم يقع من عامة المشركين بل وقع من صناديدهم ورؤوسهم، وهم الذين كانوا أشد المعادين للقرآن وحملته فقد روى ابن هشام في سيرته عن ابن اسحاق عن ابن شهاب الزهري أنه حدّث "أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زُهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألاّ نعود؛ فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها؛ قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك.

قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. قال: فقام الأخنس وتركه"[1].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد عندهم؛ فلقد خشوا تأثير القرآن على أتباعهم فعزموا أن يبعثوا برسول إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليكلمه ويكشف عنهم فقد روى ابن هشام في سيرته قال: قال ابن اسحاق عن محمد بن كعب القرطبي قال حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون؛ فقالوا يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه؛ فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا بن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة (الشرف) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: يا بن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، الطبعة الأولى، دار الخير، دمشق، ١٩٩٢، ج١، ص ص٢٥٠-٢٥١.

به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً ملكناك علينا؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع (من يتبع من الجن) على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم؛ قال فاسمع مني؛ قال: أفعل؛ فقال: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، حم، تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه**﴾[1] ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به؛ قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؛ قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم"[2].

فهذه شهادة من عتبة وهو من صناديد قريش في أن للقرآن الكريم روعة ومهابة في نفوس وقلوب مستمعيه وهذا ما جعل الوليد بن المغيرة يقول قوله

---

(١) فصلت: ١-٥.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١، ص ص٢٣٤-٢٣٥.

المشهور "والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لغدق (النخلة) وإن فَرْعه لَجَناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته"[١].

وإذا كان هناك من المشركين من تأثر بالقرآن الكريم ولم يؤمن فإن هناك من آمن به لمجرد الاستماع له كما حصل مع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقد روي* أن "إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعداً: وكنت صاحب خمرفي الجاهلية، أحبها وأسر بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحَذْوَرة (سوق في مكة وأصبح جزءاً من المسجد) عند دور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي، قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال؛ فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً. قال فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلي أجد عنده خمراً فأشرب منها. قال: فخرجت فأتيته فلم أجده. قال: فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين. قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة؛ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني، قال؛ فقلت: حين رأيته، والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول. قال فقلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأروعنّه؛ فجئت من قبل الحجر،فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مستَقْبَله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن رق له قلبي، فبكيت ودخلني الاسلام، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن حسين، وكانت طريقه حتى يجزع (يقطع) المسعى، ثم يسلك بين دار

---

(١) المرجع ذاته، ج١، ص٢١٦.

* هناك رواية أخرى مشهورة عن اسلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وقد ذكرها ابن هشام في الجزء الأول صفحة ٢٧٠ وأحببت أن أنقل هذه الرواية لتعلقها بالموضوع أكثر من الرواية الأخرى.

عباس بن المطلب وبين دار ابن أزهر بن عبد عوف الزهري، ثم على دار الأخنس ابن شريق حتى يدخل بيته، وكان مسكنه في الدار الرقطاء التي كانت بيدي معاوية بن أبي سفيان. قال عمر رضي الله عنه: فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر، فنهمني (زجرني) ثم قال ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة؟ قال قلت: جئت لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته"[١].

فهذه وغيرها من الأخبار نماذج عن استماع المشركين للقرآن الكريم وأثره في نفوسهم وقلوبهم، فكانوا على أصناف ثلاثة، صنف استمع للقرآن خفية وصنف حاور الرسول صلى الله عليه وسلم واستمع منه وتأثر بالقرآن ولم يؤمن وصنف ثالث استمع للقرآن خفية وآمن به بعد أن تأثر به.

ثانياً: حث اتباعهم على عدم الاستماع للقرآن الكريم خشية وقوعه في نفوسهم والإيمان به. وقد وضح هذا المظهر عندما كان المشركون يأمرون أتباعهم ويحثونهم على عدم الاستماع للقرآن الكريم، وقد صور القرآن هذا المظهر بقوله تعالى ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾[٢] "فهم كما كانوا يدعون يسحرهم، ويغلب عقولهم، ويفسد حياتهم ويفرق بين الوالد وولده، والزوج وزوجه ولقد كان القرآن يفرق نعم. ولكن بفرقان الله بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال.كان يستخلص القلوب له، فلا تحفل بوشيجة غير وشيجته فكان هو الفرقان"[٣].

---

(١) المرجع ذاته، ج١، ص٢٧٣-٢٧٤.

(٢) فصلت: ٢٦.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، ج٥، ص٣١٢٠.

وهذا المظهر من مظاهر الإعراض عن الدعوة الاسلامية وهو "تلقينهم الناس أساليب الإعراض، فالذين كفروا هم أئمة الكفر يقولون لعامتهم: لا تسمعوا لهذا القرآن، فإنهم علموا أن القرآن كلام هو أكمل الكلام شريفَ معانٍ وبلاغةَ تراكيب وفصاحةَ ألفاظ، وأيقنوا أن كل من يسمعه وتُداخل نفسَه جزالةُ ألفاظه وسموُّ أغراضه قضى له فهمه أنه حق اتباعه، وقد أدركوا ذلك بأنفسهم ولكنهم غالبتهم محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا ودبروا تدبيراً لمنع الناس من استماعه، وذلك خشية من أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن فصرفوهم عن سماعه"[١].

ولم يقف الأمر عند نهيهم أتباعهم من سماع القرآن الكريم بل قد طلبوا منهم التشويش على المسلمين والقول فيما لا فائدة فيه ولا معنى له. فقالوا: "والغوا فيه لعلكم تغلبون" وذلك عن طريق "إحداث أصوات تغمر صوت النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن... حتى لا يفقهه السامعون... ولقد قال ابن عباس "كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان أبو جهل وغيره يطردون الناس عنه ويقولون لهم: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فكانو يأتون بالمكاء والصفير والصياح وانشاد الشعر والأراجيز وما يحضرهم من الأقوال التي يصخبون بها". وقد ورد في الصحيح "أنهم قالوا لما سمعوا إلى قراءة أبي بكر وكان رقيق القراءة: إنا نخاف أن يفتن أبناءنا ونساءنا"[٢].

فهذه المظاهر وغيرها كانت ظاهرة جليلة في تأثر الكافرين بالقرآن الكريم وإن لم يؤمنوا به؛ إلا أنه أعجزهم وأثبت عجزهم وأرهبهم فجعلهم يستمعون له خفية ويتعاهدون على ألا يعودوا، ولكن قوة تأثيره فيهم تجعلهم يعودون للاستماع له ثلاث مرات ولولا العناد والمفاخرة بالقومية لآمنوا.

---

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٤، ص ص٢٧٦-٢٧٧.

(٢) المرجع ذاته. ج٢٤، ص٢٧٨.

ثم نراهم يمضون في عنادهم وتكبرهم فيأمرون سفهاءهم بألا يسمعوا للقرآن خشية أن يفتتنوا فيه فيؤدي ذلك إلى الإيمان به. ولم يقف الأمر عند منعهم إياهم الاستماع للقرآن،بل أمروهم أن يشوشوا عليهم من خلال الصياح أو اطلاق عبارات لا معنى لها ولا هدف.

ومما يستدل عليه أيضاً في هذا الجانب:

١- قوله تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير**﴾[١] أي "وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله وأنه لا إله إله هو وأن رسله الكرام حق وصدق يبادرون الذين يحتجون عليهم باسطين إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء".[٢]

فهذا التأثر بالقرآن يبدو مظهره واضحاً في تفسير وجوه أهل الكفر حتى يكاد الرائي لها أن ينكر من نفسه معرفته لها من ذي قبل لشدة تغيظها. وهذا التأثر لم يأت من شخص القارئ إنما أتى من النص القرآني الذي جعلهم يفقدون السيطرة على أعضائهم الجسدية وتخونهم أحلامهم في ضبط انفعالاتهم أمام تلاوة آيات القرآن.[٣]

٢- قوله تعالى: ﴿**وإذا ذكرت الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون**﴾[٤].

---

(١) الحج: ٧٢.

(٢) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٣، ص٢٤٥.

(٣) انظر محمد عطا، **الاعجاز التأثيري للقرآن**، ص ص٦٥-٦٦ بتصرف.

(٤) الزمر: ٤٥.

إن الإنسان يستطيع أن يصف لنا الصورة المرتسمة على الوجه لكن أن يصف لنا صورة القلب فهذا مما يعد من الإعجاز وفي هذه الآية تكشف لحقيقة الذين لا يؤمنون فقد كشف لنا القرآن عن قلوبهم ومقدار ما أثر القرآن فيهم من خلال ذكره لخلجات نفوسهم وأعمق مشاعرهم فنراهم يشمئزون إذا ذكر الله وحده من خلال آياته المتلوة.

٣- قوله تعالى: **﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾**[١].

إن هذه النظرات لتكاد تؤثر في أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم فتجعلها تزل وتزلق أو تفقد توازنها على الأرض وثباتها.[٢]

فهم عندما سمعوا الذكر نظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرة الحاسدين لبغضهم إياه[٣] وهذا لا يكون إلا عند سماعهم للقرآن الكريم.

هذه مواقف لصنفين من الناس استمعوا للقرآن الكريم وتأثروا به، فكان صنف منهم على درجة عالية من الخشوع والخوف ظهرت آثاره عليهم جلية فتمثلت بالسجود والخشوع والبكاء فكانوا هم المؤمنين حقاً. وكان صنف آخر على درجة عالية من الالحاد والجحود ظهرت آثار القرآن عليهم من خلال إعلان الحرب على أتباعهم فكانوا هم الكافرين حقاً.

وهذه الآيات التي ذكرت ما هي إلا قليل من كثير جاءت في كتاب الله سبحانه وتعالى لتبين مظاهر التأثير الذي ظهر على مستمعيه وقارئيه.

---

(١) القلم: ٥١.

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٦٧١.

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص٤٣٦.

المبحث الثاني: مظاهر تأثير القرآن الكريم في الجن.

أشرت في الفصل الأول إلى أن القرآن الكريم كان له أثر كبير في الجن، وقد تأثر الجن بالقرآن الكريم حال سماعهم له مما أدى إلى اسلام نفر منهم عند الاستماع إليه. وقد تمثل تأثرهم بالقرآن الكريم من خلال المظاهر التالية:

أولاً: الإنصات للقرآن والاستماع له.

وقد تبين هذا المظهر في قوله تعالى ﴿**وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين**﴾[١] والانصات أبلغ من الاستماع لأن في الانصات تدبر. "والاستماع والانصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم المفضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من اصلاح النفوس"[٢].

وهذا الانصات قاد هؤلاء النفر من الجن إلى الإيمان بالقرآن الكريم بعد أن تأثروا به وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿**قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا**﴾[٣] فهم ما إن سمعوه وفهموا معناه حتى آمنوا به، فقد دخل قلوبهم واستحوذ عليها وكيف لا يكون ذلك وهم أنصتوا له بكل جوارحهم.

وقد وصفوا القرآن الكريم بالعجب وذلك للمبالغة في قوة المعنى أي يعجب منه، ومعنى ذلك أنه بديع فائق في مفاده.[٤]

---

(١) الأحقاف: ٢٩.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٩، ص٢٣٩.

(٣) الجن: ١-٢.

(٤) انظر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٩، ص٢٢١.

"وقد حصل لهم العلم بمزايا القرآن بانكشاف وهبهم الله إياه. قال المازري في شرح صحيح مسلم "لا بد لمن آمن عند سماع القرآن أن يعلم حقيقة الإعجاز وشروط المعجزة، وبعد ذلك يقع العلم بصدق الرسول؛ فإما أن يكون الجن قد علموا ذلك أو علموا من كتب الرسل المتقدمة ما دلهم على أنه هو النبي الأمي الصادق المبشر به". وأنا أقول حصل للجن علم جديد بذلك بإلهام من الله لأدلة كانوا لا يشعرون بها إذ لم يكونوا مطالبين بمعرفتها، وأن فهمهم للقرآن من قبيل الإلهام خلقه الله فيهم على وجه خرق العادة كرامة للرسول صلى الله عليه وسلم وللقرآن"[١].

ثانياً: الدعوة إلى الإيمان به:

وهذا المظهر ترتب من المظهر السابق، فما أن سمعوا القرآن وآمنوا به حتى رجعوا إلى قومهم منذرين؛ ينذرونهم بالقرآن الكريم، ويبشرونهم به، وبأنه طريقهم المستقيم إن هم ساروا عليه وأنه طريقهم إلى النجاة من العذاب الأليم إن هم آمنوا وعملوا به وإن حصل منهم خلاف ذلك فهم في ضلال مبين ومصيرهم مصير الكافرين إلى النار وقد وضحت الآيات ذلك بقوله تعالى ﴿**يا قومنا أجيبوا داعي الله و آمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم. ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء، أولئك في ضلال مبين**﴾[٢].

"ومقالة النفر من الجن -مع خشوعهم عند سماع القرآن- تتضمن أسس الاعتقاد الكامل: تصديق الوحي، ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن، والاعتراف بالحق الذي يهدي إليه، والإيمان بالآخرة وما ينتهي إلى المغفرة وما ينتهي إلى العذاب من الأعمال، والاقرار بقوى الله وقدرته على الخلق وولايته وحده للعباد، والربط بين خلق الكون وإحياء الموتى"[٣].

---

(١) المرجع ذاته، ج٢٩، ص٢٢١.

(٢) الأحقاف: ٣١-٣٢.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٢٧٠.

ولقد صورت الآيات الانطباع الذي "انطبع في قلوبهم من الانصات للقرآن، فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه أو التكلؤ في إبلاغه وإلانذار به"[١].

لقد استجاب الجن لنداء القرآن عندما سمعوه وأنصتوا له، وكانت استجابتهم إيجابية، فما أن سمعوه حتى آمنوا به، وما إن آمنوا به حتى رجعوا إلى أقوامهم يدعونهم للإيمان به. وهذا التسارع في الاستجابة والإيمان والدعوة إنما يدلنا على مدى تأثير القرآن فيهم وتمكنه في قلوبهم فلولا أنه حصل لهم هذا التأثر لما كانوا بتلك السرعة من الاستجابة والدعوة إلى القرآن الكريم والإيمان به.

---

(١) المرجع ذاته، ج٦، ص٣٢٧٣.

المبحث الثالث: تأثير القرآن الكريم في نفوس المستمعين من غير العرب.

لا خلاف بين العلماء أن القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين وأن آياته فصلت عربية في قوم يتكلمون بالعربية ولا يعرفون سواها لغة. والذي يتفق عليه العلماء أيضاً أن القرآن الكريم لم يقتصر في خطابه على العرب فقط، إنما جاء الخطاب عاماً لكل الناس دون استثناء وإن كان خطابه بالعربية فهذا لا يمنع أن يكون غير العربي مكلفاً بالإيمان والعمل به.

وقد استدل العلماء على ذلك بعدة أدلة من أهمها الأدلة القرآنية منها قوله تعالى ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[١] "فحدود الرسالة عامة للناس جميعاً وعند هذا الحد تنتهي"[٢] وقد دلت آيات عديدة وآثار كثيرة على عالمية الرسالة وأن حدودها لا يفصله اختلاف لغة أو جنس أو لون.

وقد ورد في السيرة العديد من الرسائل التي بعثها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك في ذلك الزمان من مثل رسالته إلى هرقل.لذلك فإن هذه الدعوة لم تكن محصورة في جزيرة العرب، بل إن حدودها هو العالم كله، وما نراه الآن من انتشار للإسلام في جميع أنحاء العالم دليل على ما نقول.

وإذا اتفقنا على عالمية الرسالة وعدم اختصاصها بالعرب فإننا نبحث عن مدى تأثير القرآن الكريم في غير العرب وبالذات ممن لا يتكلمون العربية، وهذا ما سأحاول بيانه في هذا المبحث على النحو الآتي:

---

(١) سبأ: ٢٨.

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، ج٥، ص٢٩٠٨.

المطلب الأول: تأثير القرآن الكريم في غير العرب في عصر التنزيل.

كانت بداية الدعوة الإسلامية مقصورة على العرب داخل مكة، ولم يكلف الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بأن يخرج من مكة أو يدعو غير أهلها للإيمان به، وقد يكون ذلك لحكم عديدة من أهمها؛ تكوين قاعدة للإسلام تكون قادرة على فهم الدعوة والرسالة والتضحية من أجل الاسلام، وقادرة على ايصال الرسالة إلى الآخرين.

ولما بدأ الإسلام يدخل صدور الرجال الأوائل وأخذ المشركون يضجرون ويصدون الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه عن الدعوة أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يبحث عن مكان يقيم فيه أركان الدولة ليقيم من خلالها شبكة اتصالات مع العالم من حوله.

وبالفعل بدأت الهجرة الأولى إلى الحبشة لما "رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء... فقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه"[١].

ولم يرض ذلك قريش لما رأوا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنوا واطمأنوا بالحبشة فرأوا أن يبعثوا منهم رجلين جلدين إلى النجاشي فيردهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل وأرسلوا معهم الهدايا للنجاشي وبطارقته[٢] وما تركوا بطريقاً إلا وأعطوه هديته وحثوه أن يحث النجاشي على أن يرجع المسلمين معهم، وسلموا النجاشي الهدايا وطلبوا منه أن يرد المسلمين معهما فأبى النجاشي إلا أن يسمع من المسلمين وقد روت أم سلمة رضي الله عنها تلك القصة فقالت: "ثم

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١، ص٢٥٥.

(٢) المرجع ذاته، ص٢٦٣.

أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائناً في ذلك ما هو كائن فلما جاؤوا وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له: أيها الملك: كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً... فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم؛ فقال له النجاشي: فاقرأه علي؛ قالت فقرأ عليه صدراً من "كهيعص" قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم؛ ثم قال لهم النجاشي إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون"[١].

فما الذي جعل النجاشي يبكي غير أن القرآن الكريم قد دخل في قلبه فوجد فيه جاذبية لم يجدها في كلام غير القرآن الكريم؟ وماالذي جعل الأساقفة يبكون لولا أنهم وجدوا في القرآن روعة ومهابة تدخل مباشرة إلى القلوب وهم الذين قال الله فيهم: ﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون**﴾[٢] فهذه الآية تصور حالة فئة

---

(١) المرجع ذاته، ج١، ص ص٢٦٥-٢٦٦.

(٢) المائدة: ٨٢.

من الناس، قالوا: إنا نصارى ويصور بعد ذلك حالهم إذا هم "سمعوا القرآن **﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾**[١] فهم إذا سمعوا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثير العميق العنيف بالحق الذي سمعوه. والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء ومن التعبير إلا الدمع الغزير وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع ليؤدي ما لا يؤديه القول؛ وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف"[٢].

وقد روي عن النجاشي أنه أرسل سبعين عالماً من علماء المسيحيين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليهم سورة (يس) فبكوا وآمنوا فنزل في حق الفريقين أو أحدهما قوله تعالى **﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾**[٣].

وهذا النموذج أقصد النجاشي والأساقفة يعد دليلاً على مدى تأثير القرآن الكريم في نفوس مستمعيه، وأن الأمر لا يحتاج من السامع سوى الانصات للقرآن بخشوع حتى يدخل إلى قلبه إن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

المطلب الثاني: تأثير القرآن الكريم في غير العرب بعد عصر التنزيل.

اتضح في الفصل التمهيدي والفصل الأول من هذه الرسالة، أن الإعجاز التأثيري لم ينحصر في فترة زمنية محددة، وحتى ينطبق القول على الإعجاز التأثيري فإنه لا بد من استمرارية المعجزة وقيامها في هذا الزمان أيضاً.

(١) المائدة: ٨٣.

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، ج٢، ص٩٦٢.

(٣) انظر رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي، (ت ١٣٠٨هـ) إظهار الحق، تحقيق محمد أحمد الملكاوي، الطبعة الأولى، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد، الرياض، ١٤١٠هـ، ج٣، ص٨٢٢. والآية من سورة المائدة رقم ٨٣.

وقد تبين أن القرآن لا حدود له في الدعوة؛ حيث لم تنحصر الدعوة الاسلامية في بيئة معينة أو جنس أولون معين بل إن حدود هذه الرسالة هي العالم كله.

ولقد ثبت بالاستقراء أن الإسلام انتشر في كثير من الدول والمناطق التي لا يوجد فيها عرب أو يتكلمون العربية ولقد كان من أسباب انتشار الاسلام هو تأثر الناس بالقرآن الكريم فما هو مدى تأثر غير العرب بالقرآن الكريم بعد عصر تنزيل القرآن الكريم؟

وبعد أن أرسيت قاعدة للدعوة الإسلامية في جزيرة العرب أخذت تتوسع وتنتشر في جميع الاتجاهات، وبجميع الوسائل والأساليب المباحة؛ سواء كان ذلك عن طريق الجهاد، أو كان عن طريق اللسان والدعوة في البلاد التي يدفع أهلها الجزية للمسلمين وسمح لهم ممارسة الدعوة.

وقد ثبت عن كثير من الذين أسلموا تأثرهم بالقرآن الكريم؛ وأنهم وجدوا في القرآن مهابة وروعة تملك قلوبهم، وتزيل التوتر الذي يعيشون. وقد أشرت في الفصل السابق إلى التجارب التي أجريت في المؤتمر السنوي السابع عشر للجمعية الطبية الاسلامية بأمريكا الشمالية، والتي أثبتت أن تأثير القرآن الكريم له أثر كبير على التوتر الذي يعيش به الإنسان، وقد أجريت التجربة على عدد من المسلمين المتحدثين بالعربية وقياسها مع عدد من غير المسلمين وغير المتحدثين باللغة العربية. وكان من أهم النتائج أن تأثير القرآن الكريم يعزى إلى عاملين:[1]

١- صوت القرآن الكريم في كلمات عربية، بغض النظر عما إذا كان المستمع قد فهمها أو لم يفهمها، وبغض النظر عن إيمان المستمع.

---

(١) انظر عبد الصمد، **الاعجاز العلمي في الإسلام**، ص٣٠٧.

٢- معنى المقاطع القرآنية التي تليت حتى ولو كانت مقتصرة على الترجمة الانجليزية بدون الاستماع إلى الكلمات القرآنية باللغة العربية.

ونحن نتكلم عن هذه التجارب في القرن العشرين، وفي مرحلة متقدمة من العلم والتكنولوجيا، وربما يكون سبب ذلك هو طغيان المادة على الروح وعدم جدوى الكتب الأخرى في العلاج الروحي الذي يحتاجه كثير من الناس في هذا العصر.

وإذا أردنا أن نأخذ بعض النماذج فإن النماذج كثيرة، وإن هذه النماذج لتدلنا دلالة واضحة عن مدى تأثير القرآن في نفوس مستمعيه.

فقد روي أن العلامة علي القوشجي[١] لما راح من وراء النهر إلى الروم جاء إليه حبر من أحبار اليهود لتحقيق الإسلام، وناظره إلى شهر، وما سلّم دليلاً من أدلة العلامة إلى هذا الحين. فجاء يوماًوقت الصبح -وكان العلامة مشتغلاً بتلاوة القرآن على سطح الدار، وكان كريه الصوت في الغاية- فلما دخل الباب، وسمع القرآن أثر في قلبه تأثيراً بليغاً، فلما وصل إلى العلامة قال: إني أدخل في الإسلام؛ فأدخله العلامة في الإسلام، ثم سأله عن السبب فقال ما سمعت مدة عمري كريه الصوت مثلك، فلما وصلت إلى الباب سمعت منك القرآن، وقد حصل تأثيره البليغ فيّ؛ فعلمت أنه وحي"[٢].

ومن الأمثلة الحية في عصرنا هذا ما رواه سيد قطب عن تأثير القرآن في سيدة يوغسلافية عند سماعها آيات القرآن الكريم.

---

(١) علي القوشجي: علاء الدين علي بن محمد القوشجي، فلكي رياضي فقيه حنفي من سمرقند، له مؤلفات كثيرة، أرسله الأمير حسن الطويل أمير تبريز في سفارة إلى السلطان محمد خان سلطان بلاد الروم ليصلح بينهما فأبقاه السلطان عنده وأعطاه مدرسة أيا صوفيا فأقام بالآستانة وتوفي فيها ٨٧٩هـ/١٤٧٤م.
انظر: كشف الظنون ٧٣٦/٥ والأعلام ٩/٥، ومعجم المؤلفين ٢٢٧/٧.

(٢) رحمة الله الهندي، **اظهار الحق**، ج٣، ص٨٢٣. نقلاً عن نور الله الشوستري في تفسيره.

يقول سيد قطب: "إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز عن الأداء البشري... إن له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشري؛ حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً... ويضيف قائلاً ولن أذكر نماذج مما وقع لغيري، ولكني أذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستة.... كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الاسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الاطلسي إلى نيويورك؛ من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم.. وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة! والله يعلم- أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة؛ وحاول أن يزاول تبشيره معنا! وقد يسر لنا قائد السفينة -وكان انجليزياً- أن نقيم صلاتنا؛ وسمح لبحارة السفينة وطهاتها وخدمها - وكلهم نوبيون مسلمون- أن يصلي منهم معنا من لا يكون في "الخدمة" وقت الصلاة! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً، إذ كانت المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة.. وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة؛ والركاب الأجانب -معظمهم- متحلقون يرقبون صلاتنا! ولكن سيدة من هذا الحشد -عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم "تيتو" وشيوعيته!- كانت شديدة التأثير والانفعال، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها. جاءت تشد على أيدينا بحرارة؛ وتقول: في انجليزية ضعيفة -إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام روح!... وليس هذا موضع الشاهد في القصة... ولكن ذلك كان في قولها: أي لغة هذه التي كان يتحدث بها "قسيسكم" فالمسكينة لا تتصور أن يقيم الصلاة" الا قسيس -أو رجل دين- كما هو الحال عندنا في مسيحية الكنيسة، وقد صححنا لها هذا الفهم! وأجبناها" فقالت: إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقى عجيب، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً... ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه..إن الموضوع الذي لفت حسي، هو أن الإمام كانت ترد في أثناء كلامه -بهذه اللغة الموسيقية- فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً... هذه الفقرات الخاصة كانت

تحدث فيّ رعشة وقشعريرية! أنها شيء آخر كما لو كان الإمام مملوءاً من الروح القدس وتفكرنا قليلاً ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناءالصلاة وكانت -مع ذلك- مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة، من سيدة لا تفهم مما تقول شيئاً"[١].

والأمر في هذا النموذج وغيره لا يعد قاعدة، لكن وقوعه يعطي دلالة على أن في هذا القرآن (سراً آخر تلتقطه بعض القلوب لمجرد تلاوته"[٢] هذا التأثر يظهر على "من لاحظ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة، ألاترى أن الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن. حتى أنهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن فيما لو أراد التالي أن يغشهما"[٣].

وقد أورد كثير من المؤلفين قصصاً عن مدى تأثر من لا يتكلم العربية بالقرآن الكريم ففي كتاب لماذا أسلموا يقول الكاتب عن سبب إسلام الفيلسوف الفرنسي (رينيه جينو): "وكان رينيه جينو مع اتصاله بالعلماء المسلمين وبمن أسلموا لا ينقطع عن الدراسة للأديان عامة والاسلام بوجه خاص.. وقد اقتنع عقله بالقرآن وشغف به فؤاده باعتبار أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف والتعديل فلما تم اقتناعه التام ولمس قلبه عمق الإيمان بالإسلام أشهر إسلامه سنة ١٩١٢م وتسمى باسم (عبد الواحد يحيى)"[٤].

وعن سبب إسلام النبيل النمساوي كارل فرودشتاين. فيروي عنه قوله: "أتذكر ذلك جيداً... كانت إحدى ليالي الشتاء العاصفة.. والأمطار الغزيرة تنهمر كالسيل الجارف.. وكنت ليلتها أزمع القيام برحلة.. لكني إزاء العواصف

---

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، ج٣، ص١٧٨٦.

(٢) المرجع ذاته، ج٣، ص١٧٨٦.

(٣) وجدي، **موسوعة القرن العشرين**، ج٧، ص٦٧٩.

(٤) عيسى عبده، أحمد اسماعيل يحيى، **لماذا أسلموا**، دار المعارف، مصر، ص٢٠٦.

والأمطار لزمت القصر وعدلت عن النزهة -ودفعتني شعوري بالوحدة إلى البحث في مكتبتي الضخمة عن كتاب مفيد... فوقعت يدي على نسخة مترجمة إلى اللغة الألمانية من القرآن الكريم، فتناولتها واستلقيت على المقعد الكبير، وشرعت أتصفحها وأقرأ بعض سورها بإمعان.. وقد أحسست بنشوة فائقة ومتعة روحية لا توصف، ثم أحضرت نسختين أخريين من الترجمة الألمانية للقرآن الكريم وعدة كراسات، وبدأت أنقل كل مجموعة من الآيات تتناول موضوعاً معيناً.. وقد استغرق ذلك العمل مني كل أوقات فراغي شهرين كاملين لم أشعر خلالهما لفرط استمتاعي بهذا العمل بأي عناء، وما كدت أفرغ من ذلك حتى بدأت أتابع في شغف غامر عرض القرآن الكريم لكل الموضوعات التي تناولها.. وقد بهرتني عظمة القرآن وأخذت بمجامع فؤادي ولبي"[١].

هذه النماذج وغيرها الكثير الكثير تعطي دلالة عن سلطان القرآن العجيب على القلوب وكل ذلك يعود إلى الأداء القرآني سواءكان ذلك من خلال أسلوب نظمه الذي توخى فيه أدق المعاني وأدق الألفاظ أو من خلال أداء الموضوعات التي اختارها القرآن فخاطب بها القلوب والعقول على حد سواء.

فكان تأثيره في المخاطبين أبلغ تأثير، فملك به قلوبهم ونقل كثيراً منهم، من عالم مليء بالتوتر، إلى عالم هادئ مليء بالطمأنينة.

---

(١) المصدر نفسه، ص ص٢١٩-٢٢٠.

تحليل المصادر والمراجع

١- اسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقي أبو الفداء (٧٩٠هـ):

يُعتبر تفسير القرآن العظيم من أشهر كتب التفسير بالمأثور وأهمها، فكان هذا التفسير بعيداً عن الروايات الضعيفة والموضوعة وقد حاول ابن كثير الابتعاد عن الاسرائيليات. وكان منهجه في التفسير هو ذكر الاية ثم يفسرها بعبارة سهلة يفهمها الخاصة والعامة.

وقد حاول تفسير القرآن بالقرآن إن أمكن ذلك. وحاول ذكر الأحاديث المرفوعة التي تتعلق بالآية ثم يذكر أقوال الصحابة والتابعين في تفسيرها. اعتمد على ابن جرير وابن عطية وابن حاتم.

لم يغفل المناقشات الفقهية في آيات الأحكام وتكلم عنها بأسلوب سهل ميسر دون اسراف.

وقد رجعت إليه في بيان معنى بعض الآيات واستفدت منه كثيراً فهو بحق تفسير واضح يستطيع الباحث أن يعتمد عليه.

٢- الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) المفردات في غريب القرآن:

يعتبر المفردات من أهم الكتب التي لا يستغني عنها الباحث في مجال التفسير أو علوم القرآن. ويُعد هذا الكتاب كتاباً في المعاني اللغوية للمصطلحات القرآنية، وقد بين فيه المؤلف المعاني للمصطلحات الغريبة في القرآن الكريم، وقد رتب المؤلف الكتاب حسب الترتيب الهجائي من باب الألف حتى باب الياء وقد استفدت من الكتاب في تحديد معنى الإعجاز.

٣- سيد قطب: في ظلال القرآن:

من أهم الكتب التي كُتبت في التفسير في العصر الحديث وهذا الكتاب يُعتبر من كتب التفسير التي أبدع فيها مؤلفه فهو لم يجمع التفسير جمعاً إنما

هو إبداع جديد في مجال التفسير وقد بين فيه المؤلف وجوب تطبيق المبادىء القرآنية في الحياة الإنسانية فهو يخاطب المجتمع الإنساني في تفسيره، وقد ذكر فيه الآيات ثم يمر عليها مروراً سريعاً لبيان أهدافها وأساليبها ثم يرجع إليها مفصلاً فيها آية آية رابطاً بينها وبين القرآن والمجتمع الإسلامي حديثاً وقديماً.

يعتبر هذا الكتاب من أهم المراجع التي اعتمدت عليها في بحثي.

٤- محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) جامع البيان في تأويل القرآن:

يعتبر تفسير الجامع لابن جرير مرجع المفسرين بحق ويُعد المفسرون من بعده عالة عليه، ومن العيب في أبحاث التفسير ألا يرجع المفسر الى تفسير ابن جرير.

منهج ابن جرير في التفسير هو ذكر الآية وسبب نزولها والقراءات فيها وأقوال العلماء في تفسيرها ثم يقوم بالترجيح بينها فهو تفسير بالمأثور وإن كان كثيراً ما يشير برأيه إلى كثير من الأقوال.

٥- محمد رشيد رضا ت (١٣١٥هـ) تفسير المنار:

هذا الكتاب من الكتب المهمة والحديثة في التفسير بأسلوب علمي معاصر، فهو لا يتقيد بأقوال المفسرين وكان كثيراً ما يستعين بما ورد في التوراة والإنجيل لشرح بعض الآيات القرآنية المهمة وكذلك كان يدافع عن الكثير من المبادىء الإسلامية وكان لا يغوص كثيراً في المسائل الفقهية واللغوية ويكتفي بإفهام غير الواضح.

٦- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير:

من أفضل الكتب المتأخرة في التفسير، جمع فيه أقوال المفسرين السابقين ورجح بينها. ويعتبرتفسيره شاملاً إذ كان يبين الترابط بين السور والآيات وأسماء السور وسبب تسميتها ثم يذكر الفوائد البلاغية واللغوية في الآيات،

كما كان معنياً ببيان الأحكام الفقهية التي تؤخذ من الآية ويُعد من التفسير بالمأثور والرأي.

٧- محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ) مفاتيح الغيب:

تفسير عقلي للقرآن الكريم، من أجود ما ألف في بيان كتاب الله العزيز، ومن الكتب المهمة التي يعتمد عليها الباحث، امتاز بنواحي عديدة، اهتم بالمناسبات بين الآيات والسور، كان كثيراً ما يستطرد في العلوم الرياضية، وكثيراً ما يرد على المعتزلة وآرائهم. ولم يغفل الجانب الفقهي والأصولي والجانب اللغوي في كتابه.

٨- محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) الكشاف:

يعتبر الكشاف مرجعاً مهماً في التفسير، فمؤلفه لم يُسبق إليه إذ يعتبر أول تفسير اعتنى بالمسائل البلاغية واللغوية والكلامية، وقد بيّن وجوه الإعجاز في القرآن، واعتنى بعلم المعاني والبيان وكان كثيراً ما يؤيد المعتزلة في التفسير وخاصة في الصفات وقد فتح الزمخشري شهية العلماء من بعده فجاءت الكثير من المؤلفات بين مؤيد ومعارض.

٩- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز:

يعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي كُتبت في إعجاز القرآن الكريم، والذي انتصر فيه مؤلفه لقضية النظم على اللفظ؛ ثم ناقش آراء المعتزلة في قضية الإعجاز بالصرفة؛ لم يُسبق عبد القاهر في نظريته هذه (أعني النظم) والتي عزى من خلالها إعجاز القرآن الكريم إليها ونفى أن يكون هناك إعجاز غير النظم القرآني. ويُعد الإمام الجرجاني مرجعاً إلى من جاء بعده من العلماء الذين كتبوا في إعجاز القرآن الكريم. وقد اعتمدت اعتماداً مباشراً على نظرية النظم عند الجرجاني واستفدت منه كثيراً.

١٠- أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) إعجاز القرآن:

من المراجع الأساسية في إعجاز القرآن الكريم، والذي يُعد مرجعاً بارزاً في إعجاز القرآن، حصر الإعجاز في ثلاثة أوجه هي الأخبار بالغيب وحال النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمي لا يكتب ولا يحسن القراءة ونظم القرآن البديع وتناهيه في البلاغة.

وقد أفرد فصلاً كاملاً في بلاغة القرآن الكريم ثم قارن بين بلاغة القرآن وبلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أفرد فصلاً للشعر وقارنه ببلاغة القرآن.

يعد هذا الكتاب مرجعاً أساسياً في إعجاز القرآن وقد اعتمدت عليه اعتماداً مباشراً واستفدت منه كثيراً.

١١- صلاح عبد الفتاح الخالدي، البيان في إعجاز القرآن:

من الكتب الحديثة والمبسطة تكلم فيه المؤلف عن المرحلة التاريخية للإعجاز من بداياتها القرآنية حتى عصرنا الحاضر وقد قسم المؤلف الإعجاز الى إعجاز في أسلوب القرآن الكريم والذي تحدث فيه عن الإعجاز البياني والتصوير الفني والقسم الآخر هو الإعجاز في المضمون القرآني والذي تحدث فيه عن الإعجاز في موضوعات القرآن من غيب وعلم وتشريع وعلم النفس وتأثيرالقرآن في النفس الإنسانية.

استفدت من هذا الكتاب ورجعت إليه في كثير من المباحث داخل البحث.

١٢- صلاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب:

من المراجع الأساسية في إعجاز القرآن التأثيري وبالذات فيما يخص الجرس والإيقاع الموسيقي ويعتبر هذا الكتاب بياناً لنظرية التصوير الفني التي أبدعها سيد قطب.

اعتمدت على هذا الكتاب واستفدت من خلاله وخاصة في إبراز الجانب الفني للقرآن.

١٣- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن:

من الكتب الحديثة والتي تعد إبداعاً في مجال علوم القرآن الكريم تحدث فيه الكاتب عن القرآن وتأثيره في العرب بعيداً عن التشريع والأخبار الغيبية ثم تحدث فيه المؤلف عن نظرية التصوير الفني وضرب أمثلة من القرآن الكريم على صحة ما يقول. وقد أبدع المؤلف في هذه النظرية والتي تعد ابتكاراً في إبراز الجانب الفني للقرآن.

يعزو تأثير القرآن الى التصوير الفني وهو الأسلوب القرآني المتبع في كثير من آياته.

١٤- مالك بن نبي (ت١٩٧٣م)، الظاهرة القرآنية:

من الكتب التي أبدع فيها مالك بن النبي وهو يتحدث في هذا الكتاب عن الإعجاز القرآني تكلم عن معنى الظاهرة القرآنية وقارنها بالظواهر المادية والغيبية ثم حديثه عن الحركة النبوية وإدعاء النبوة وبحث في أصول الإسلام وهي الرسول والوحي وتكلم عن فواتح السور وأسرارها والمجاز القرآني.

١٥- محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن:

يمثل هذا الكتاب استجابة جديدة في التعرف إلى القرآن، تاريخه، إعجازه، خصائص أسلوبه، علومه وأحكامه. قسم المؤلف الكتاب الى قسمين القسم الأول تاريخ القرآن وعلومه. فتحدث عن نزول القرآن منجماً والأحرف السبعة والتفسير والمكي والمدني في علوم القرآن.

أما القسم الثاني فكان من منهج القرآن وأسلوبه والذي تحدث فيه عن أسلوب القرآن وخصائصه وموضوعات القرآن وطريق عرضه لها ثم النزعة الإنسانية في القرآن.

وأفرد قسماً ثالث للدراسات التطبيقية.

١٦- مصطفى صادق الرافعي إعجازالقرآن والبلاغة النبوية:

من المؤلفات المهمة في مجال إعجاز القرآن الكريم تحدث فيه المؤلف عن تاريخ القرآن وجمعه وتدوينه وأثر القرآن الكريم في اللغة ثم تحدث عن العلوم في القرآن الكريم. كما وتحدث عن الأقوال في الإعجاز القرآني وأفرد فصلاً في حقيقة الإعجاز، ثم تحدث بعد ذلك عن الجانب الفني في القرآن الكريم والذي عزاه الى البلاغة القرآنية.

أما القسم الثاني من الكتاب فقد كان حول البلاغة النبوية وفصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم ونفي الشعر والشبهات حوله.

١٧- محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن:

يعالج المؤلف طرفاً من نظم القرآن وهو الفاصلة وقد قسم المؤلف الكتاب الى أبواب خمسة عالج فيها طرفاً من نظم القرآن فكان الباب الأول في تعريف الفاصلة ثم في الباب الثاني تحدث عن تاريخ الفاصلة وقد قسم الباب الى أربعة فصول وتحدث في الباب الثالث عن علم الفاصلة مع مقارنة مع السجع والقافية ثم أركان الفاصلة أما الباب الرابع فكان حديثه فيه عن الجمال الفني للفاصلة وتحدث فيه عن الجمال الموضوعي والإيقاع الموسيقي والعلاقات بين الفاصلة وقرينتها ثم تحدث عن الفاصلة والإعجاز ومعطيات الفاصلة في علوم اللغة العربية والشعر والموشحات والشعر الحديث.

الخاتمة

وبعد هذه الجولة التي سرت من خلالها مع إعجاز القرآن التأثيري، كان لا بد من الوقوف عند أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال التحليل الذي توصلت إليه من المصادر والمراجع، وقد كانت النتائج محصورة بالآتي:

١- الإعجاز التأثيري هو ما يصنعه القرآن في القلب من روعة ومهابة تجعل سامعيه يتأثرون به.

٢- الإعجاز التأثيري في آيات القرآن جميعها، فهو موجود في كل آية من آياته دون استثناء؛ فموضع الإعجاز التأثيري هو القرآن كله.

٣- يعتبر إعجاز القرآن التأثيري مستقلاً عن الإعجاز النفسي؛ والإعجاز التأثيري أعم من النفسي.

٤- لم يغفل العلماء إعجاز القرآن التأثيري وخاصة العلماء الذين تحدثوا عن الإعجاز القرآني.

٥- بدأ اهتمام العلماء بإعجاز القرآن التأثيري مع بداية اهتمامهم بالإعجاز القرآني وقد وضحت معالم هذا الأمر في القرن الرابع الهجري.

٦- توسعت آراء العلماء في إعجاز القرآن التأثيري حديثاً وخاصة مع بروز علم النفس الحديث.

٧- كانت إشارات القرآن الكريم حول إعجاز القرآن التأثيري واضحة وقد جاءت صريحة في بعض الآيات وضمنية في آيات أخرى.

٨- يعتبر النظم القرآني هو الوجه الإعجازي الأبرز في قضية الإعجاز البياني؛ والنظم هو توخي معاني النحو.

٩- يُعتبر النظم القرآني من أهم عوامل الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم؛ وإذا كان النظم هو من أبرز وجوه الإعجاز البياني، فإن الإعجاز التأثيري هو من أبرز وجوه الإعجاز البياني.

١٠- يتنوع النظم القرآني حَسب المعاني الذهنية المرادة، مما يترتب على ذلك تنوع التأثير القرآني حسب بلاغة النظم.

١١- الإيقاع الموسيقي والذي يمثله التناسق الفني بين الألفاظ وفاصلة الآيات وبين المعاني الذهنية من أبرز وجوه النظم، مما جعل الإيقاع يُعد عاملاً أساسياً في إعجاز القرآن التأثيري.

١٢- تنوعت الفاصلة القرآنية، فنجدها تارة قصيرة في السور القصار ومتوسطة في السورة المتوسطة ووجدناها طويلة في السور الطوال. وقد تفاوتت الفاصلة (وهي جزء من الإيقاع الموسيقي) في التأثير بحيث جاءت الفاصلة القصيرة من أشد الإيقاعات تأثيراً من حيث الجرس الموسيقي.

١٣- الأداء القرآني له دور كبير في تأثير القرآن على النفس الإنسانية ونقصد بالأداء هو إعطاء التلاوة حقها.

١٤- يمتاز الأداء الحسن في الصوت الحسن للقرآن عن غيره من الأداء إذا لم يكن حسناً أو صوت المؤدي حسناً.

١٥- تنوعت المعاني القرآنية حول الحياة وغاياتها وحول ما وراء الحياة وكل ما يخص الإنسان.

١٦- جاءت المعاني متعددة بألفاظ خاصة في القرآن تتناسب معها ولا يسد مكانها ألفاظ غيرها.

١٧- الألفاظ والمعاني كونت تناسقاً فنياً هو النظم القرآني وهو الذي يؤدي الى التأثير في النفس الإنساني.

١٨- تؤدي الترجمة للمعاني القرآنية تأثيراً قد لا يصل الى نفس التأثير الذي يؤديه النظم القرآني.

١٩- تنوعت المواضيع في القرآن الكريم وامتازت بعضها عن البعض في درجة التأثير.

٢٠- جاءت الموضوعات في الفترة المكية والتي عالجت قضايا الإيمان والعقيدة بأساليب أكثر تأثيراً من الموضوعات في الفترة المدنية.

٢١- يشكل النظم والإيقاع والأداء والمعنى والموضوعات القرآنية مكمن الإعجاز التأثيري وسره في القرآن الكريم.

٢٢- يُعتبر الإعجاز التأثيري وجهاً من أوجه الإعجاز البياني.

٢٣- ظهرت عدة مظاهر في المؤمنين جراء استماعهم للقرآن؛ منها المهابة والروعة، الخشوع والقشعريرة، والتنافس على العمل بالقرآن.

٢٤- وظهرت عدة مظاهر في الكافرين جراء استماعهم للقرآن؛ منها الاستماع للقرآن خفية، وحث أتباعهم على عدم الاستماع للقرآن.

٢٥- أثر القرآن في الجن كما أثر في الإنس وكانت استجابة الجن للقرآن مباشرة.

٢٦- أثر القرآن في المستمعين من غير العرب كما أثر في العرب، فملك قلوب الكثير منهم حتى بلغ به التأثر الإيمان به.

قائمة المصادر والمراجع

- **أولاً:**

* القرآن الكريم

- ابن هشام (ت ٢١٣هـ)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، وآخرون، الطبعة الأولى، دار الخير، دمشق، ١٩٩٢م.
- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، **إعجاز القرآن**، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت١٩٩١م.
- أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، **الكليات**؛ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، سوريا، ١٩٩٣م.
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، **جامع البيان في تاويل القرآن**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢م.
- أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٦هـ)، **النكت في إعجاز القرآن**؛ في (ثلاث رسائل الإعجاز) تحقيق وتعليق محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م.
- أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٤م.
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.
- أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ)، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، تحقيق علي محمد البجاوي، شركة عيسى الحلبي وشركاه، مصر.
- أبو القاسم، الحسين بن محمد الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- أحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، الطبعة الثانية، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٨م.
- أحمد بن يوسف السمين الحلبي، **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، تحقيق وتعليق محمد التونجي، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٣م.

- جلال الدين السيوطي، **الاتقان في علوم القران**، تحقيق محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٧م.
- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **معترك الاقران في إعجاز القران**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الكفر العربي.
- الحسين أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، دار الجيل بيروت، ١٩٩١م.
- حمد بن سليمان بن ابراهيم الخطابي (ت٣٨٨هـ)، **بيان إعجاز القران في (ثلاث رسائل في الإعجاز)**، تحقيق وتعليق محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م.
- رحمة الله بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني الهندي (ت١٣٠٨هـ)، **إظهار الحق**، تحقيق محمد أحمد الملكاوي، الطبعة الأولى، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤١٠هـ.
- عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، تصحيح وتعليق محمد عبده، محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٤م.
- عبد القاهر الجرجاني، **الرسالة الشافية في (ثلاث رسائل في الإعجاز)**، تحقيق وتعليق محمد خلف الله أحمد، محد زغلول سلام، الطبعة الثانية دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م.
- علي بن محمد السيد الجرجاني (ت٨١٦هـ)، **التعريفات**، تحقيق عبد الرحمن عميره، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.
- محمد أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، الطبعة الثالثة، دار الخير بيروت، ١٩٩٤م،
- محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر (ت٦٠٦هـ)، **التفسير الكبير**، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.
- محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر (ت٦٠٦هـ) **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**، تحقيق ابراهيم السامرائي، محمد بركات أبو علي، الطبعة الأولى، دار الفكر، عمان، ١٩٨٥م.
- محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت١٢٥٥هـ)، **نيل الأوطار عن احاديث سيد الأخيار**، شرح منتقى الأخبار، دار القلم، بيروت.

- محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، **اساس البلاغة**، الطبعةالأولى، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٢م.
- محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التاويل**، دار الكتاب العربي.
- محي الدين النووي، **صحيح مسلم بشرح النووي**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٩٠م.

ثانياً: المراجع:

- أحمد بن حمد الخليلي، جواهر التفسير، **انوار من بيان التنزيل**، الطبعة الأولى، مكتبة الاستقامة، عُمان، ١٩٨٤م.
- أحمد عبيد الكبيسي، "**الإعجاز القرآني في وصف اليهود**"، في بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني، وزارة الأوقاف العراقية، بغداد ١٩٩٠م.
- أحمد جمال العمري، **مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري**، دار المعارف، مصر.
- أحمد ياسوف، **جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير**، الطبعة الأولى، دار المكيني، دمشق ١٩٩٤م.
- حاتم الضامن، **نظرية النظم تاريخ وتطور**، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م.
- الحسين جرنو محمود جلو،**اساليب التشويق والتعزيز في القرآن الكريم**، الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤م.
- سعد الدين السيد صالح، **المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم**، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣م.
- سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، الطبعة الرابعة عشرة، دار الشروق، بيروت ١٩٩٣م.
- سيد قطب، **في ظلال القرآن**، الطبعة الخامسةعشرة، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٨م.
- صلاح عبد الفتاح الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، الطبعة الثانية، دار عمار، عمان، ١٩٩١م.
- صلاح عبد الفتاح الخالدي، **نظرية التصوير الفني عند سيد قطب**، الطبعة الثانية، دار المنارة، جدة، ١٩٨٩م.
- عبد الجليل عبد الرحيم، **لغة القرآن الكريم**، الطبعة الأولى، مكتبة الرسالة عمان، ١٩٨١م.

- عبد الرزاق نوفل، **القرآن والعلم الحديث**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤م.
- عبد الكريم الخطيب، **إعجاز القرآن**، الإعجاز في دراسات السابقين، الطبعة الثانية، دار المعرفة، لبنان، ١٩٧٥م.
- عدنان محمد زرزور، **علوم القرآن**، مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.
- عيسى عبده، أحمد اسماعيل يحيى، **لماذا اسلموا؟** دار المعارف، مصر.
- فتحي أحمد عامر، **المعاني الثانية في الأسلوب القرآني**، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٦م.
- عمر السلامي، **الأعجاز الفني في القرآن**، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٨٠م.
- فضل حسن عباس، سناء فضل عباس، **اعجاز القرآن الكريم**، مجهول دار النشر، ١٩٩١م.
- قحطان عبد الرحمن الدوري، **التحدي في آيات الإعجاز**، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، سوريا، ١٩٩٧م.
- مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.
- مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، إخراج ابراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة العلمية، طهران.
- محمد أبو زهرة، **المعجزة الكبرى القرآن**، دار الفكر العربي، القاهرة.
- محمد الخضري بك، **تاريخ التشريع الإسلامي**، الطبعة الأولى، إدارة البحوث الإسلامية والدعوة والافتاء، الهند، ١٩٨٣م.
- محمد الحسناوي، **الفاصلة في القرآن**، الطبعة الثانية، دار عمار عمان، ١٩٨٦م.
- محمد الدالي، **الوحدة الفنية في القصة القرآنية**، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
- محمد رشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم**، (تفسير المنار)، دار المعرفة ، بيروت.
- محمد سعيد رمضان البوطي، **من روائع القرآن**، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مكتبة الفارابي، دمشق.
- محمد الطاهر ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس.
- محمد فريد وجدي، **دائرة معارف القرن العشرين**، الطبعة الثالثة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧١م.
- محمد كامل عبد الصمد، **الإعجاز العلمي في الإسلام القرآن الكريم**، الطبعة الثانية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣م.

- محمد نبيل طاهر العمري، **اساليب إثبات العقيدة في ضوء تقسيمات القرآن**، بحث غير منشور.
- محي الدين رمضان، **وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن**، الطبعة الأولى، دار الفرقان، عمان ١٩٨٢م.
- مصطفى الصاوي الجويني، **جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني**، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- منير سلطان، **إعجاز القرآن بين المعتزلة والاشاعرة**، الطبعة الثالثة، منشأة المعارف الإسكندرية، ١٩٨٦م.
- نعيم الحمصي، **فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق**، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٨٠م.
- مؤتمر الإعجاز القرآني، الطبعة الأولى، وزارة الأوقاف العراقية، بغداد، ١٩٩٠م.

Abstract

The Infallibility of the Influence of the Qur'an

by

Khaled Ali Husain Al Omari

Inimitability of Quran's influence is regarded as an old and an ancient study at the same time. Scientists have investigated this domain since the early researches in inimitability of Quran at the end of the 4th-H century. AL Imam AL Khatabi defined inimitability of Quran as what the Holy Quran does to hearts and affects psyche. Scientists started to write about this issue. However, their writings were scattered and no more than.

The features of inimitability of Quran emerged in the modern age as Muslim scientists started to study modern theories of psychology. They began to look for traces of these theories in the Holy Quran. They discovered that the Holy Quran was ahead of the modern sciences in the domain of psychology. The Holy Quran talked about the human psyche, its characteristics, its affairs and all is secrets. In addition, Muslim scientists studied the influence of the Holy Quran on the human psyche and how it affects listeners. The results revealed that the Holy Quran has a profound influence on the human psyche and a wonderful power on hearts that can not be made by the most fluent human speech.

The researcher found through the study of inimitability of Quran's influence that there are several reasons related to the influence of the Quran on human psyche. He found that many scientists attributed this to the fact that the Holy Quran is a Holy Spirit sent by Allah to Whom be

ascribed all perfection an majesty. Because the Holy Quran is a spirit sent by Allah, it influences the psyche and falls directly in the heart. The advocates of this attitude depended on the Holy verse of the Holy Quran (And thus a spirit revealed to you from Allah's command) [Ashurah-verse 52]. This was one of the essencial factors of Quran influence on the psyche. An other factor is the Holy verses themselves which are composed in a way no human has ever known. This composition is rich with the deepest and most fluent meanings that made the most fluent linguists astonished.

The Holy Quran also addressed the most vital issues that face Man in a well-performed style. This style means that the reader should recite the Holy verses in a very organised manner.

The researcher found that the influence of the Holy Quran is due to several reasons. The most important reason is the composition of the Holy Quran. The Holy Quran came in a magnificent composition innovated by Allah. This Quranic composition came within two important aspects which are the order of meanings and the order of pronunciation that is the Holy Quran chose the most subline vocabulary.

Among the important factors of the inimitability of Quran influence is what is known as rhythm which has several aspects such as the Quranic pause. The Quranic pause varies in accordance with the chapter of the Holy Quran. This pause is long in the long sura, short in the short sura and medium in the medium sura (Sura is the chapter of the Holy Quran). It is found that the Quranic rhythm has a profound influence on the human psyche and that the rhythm is important in attracting the attention of the listener.

An other important factor is the well-performed recitation of the reader. The recitation of the Holy Quran is a very important factor in

the issue of the influence on the psyche. The rules of the recitation is a special characteristic of the Holy Quran.

The researcher mentioned two essencial factors in the influence of the Holy Quran on the listener: the Quranic meanings and the Quranic subjects. The Holy Quran took into consideration the mental meanings by choosing the vocabulary that carry more than one single meaning.

Finally, the Holy Quran has a profound influence on the psyche of the addressee whether the addressee understands Arabic or not. The researcher found several models and scientific experiments conducted to prove the topic of the Quran influence. These samples and the important results are included in this research. It is clear that the Holy Quran has an influence related to its composition. The unique rhythm, the recitation as well as the subjects and meanings that dealt with human affairs and life are important factors in the case of Quran influence.